الأفعال الكلامية في آيات التعجيز في القرآن الكريم

دراسة تداولية

دكتورة/

أمل عبد الفتاح أحمد محمد

أستاذ أصول اللغة المساعد

كلية البنات الإسلامية بأسيوط

الأفعال الكلامية في آيات التعجيز في القرآن الكريم
دراسة تداولية

أمل عبد الفتاح أحمد محمد

قسم اللغة العربية، كلية البنات الإسلامية بأسيوط ، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني: .Amlmohammed1376.el@azhar.edu.eg

الملخص :

يتناول هذا البحث الأفعال الكلامية في آيات التعجيز في القرآن الكريم: دراسة تداولية.

وقد جاء البحث في قسمين: قسم نظري، وقسم تطبيقي، أما القسم النظري فقد مَهدتُ فيه بالحديث عن مفهوم: التداولية والأفعال الكلامية، أما القسم التطبيقي، فكان البحث في دراسة الفعل الطلبي (الأمر، الاستفهام) في آيات التعجيز؛ وذلك بوصفه فعلاً لغويًا غير مباشر يحمل طاقة إنجازية الغرض منه التلميح إلى عدد من الدلالات والمقاصد، مستخدمة المنهج الوصفي التحليلي، مستعينة . بالله . على تحقيق ذلك بما أبدعه علماء التفسير واللغة في تحليلهم للآيات القرآنية (موضوع البحث)، فَخُلَص البحث إلى تجليةِ ما تلمح إليه آيات التعجيز بتلك الأفعال، وبيان الأبعاد التداولية لذلك التلميح؛ ابتغاء الوقوف على قواها الإنجازية وأثره في النفس، طلبًا لخدمة الأهداف والمقاصد الدينية والتشريعية.

الكلمات المفتاحية: الأفعال الكلامية . التداولية . أسلوب الأمر . أسلوب الاستفهام.

The Verbal Acts of the Verses of the Miracles in the Holy Quran are a Deliberative Study

Amal Abd El-Fattah Ahmed Mohamed

Department of Arabic Language, Faculty of Islamic Girls in Asyut, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.

Email: Amlmohammed1376.el@azhar.edu.eg.

Abstract :

This research deals with the verbal acts of the verses of the Qur'an: a deliberative study.

The research came in two parts: a theoretical section, and an applied section, but the theory paved the way for talking about the concept of verbal and deliberative actions, and the applied section, so the research came to study the application act (order, question) of the verses of the obstruction; as an indirect linguistic act that carries an accomplished energy intended to hint at the number of using the descriptive analytical approach, using this to achieve this, which was created by the scholars of interpretation and language in their analysis of Qur'anic verses, the research concluded that the verses of the abrogation of these acts were manifested, and the deliberative dimensions of that insinuation were demonstrated, in order to identify their achievement forces and their impact on the soul, to serve religious and legislative objectives and purposes.

Keywords: Verbal, deliberative, Style of command, Questioning style.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه وسار على دربه إلى يوم الدين.

أما بعد ،،،

فإن اللغة سلوك اجتماعي يعبّر به الناس عن أفكارهم، ونشاط تقوم به جماعة من الناس بهدف التواصل وتحقيق المصالح، والفرد يستخدم اللغة في مواقف الحياة حين يوجه شكرًا، أو يقدم اعتذارًا، أو يصدر قرارًا، فالكلام المصاحب لهذه الأنشطة وغيرها، هو مادة صالحة للدراسة(١).

لذلك عُنيت بالدراسة والاهتمام من طرف العديد من التخصصات كعلم النفس، وعلم الاجتماع، والبنية، وهذه الأخيرة تنظر إلى اللغة على أنها بنية مغلقة، فقد شهد العقد السابع من القرن العشرين منعطفًا جديدًا في الفكر اللغوي الحديث والمتمثل في التداولية التي ظهرت على يد (أوستين) وطوَّرها تلميذه (سيرل)، وقد جاءت كردّ على البنيوية التي أهملت المعنى عامة والكلام خاصة كما حدث عند (دي سوسير)، والتركيز على الكفاءة وإهمال الأداء كما حدث عند (تشومسكي)، وهي بدورها أعادت الاعتبار للكلام والأداء من خلال دراسة اللغة في علاقتها مع مستعمليها، إضافة إلى كيفية فهم الناس بعضهم لبعض، وتنطلق التداولية من قاعدة أساسية هي "أننا

(١) الأفعال الكلامية في القرآن الكريم (سورة البقرة: دراسة تداولية)، محمد مدور، (رسالة دكتوراه)، جامعة الحاج الخضر، باتنة، ٢٠١٣ م . أ.

عندما نتلفظ بقول فإننا ننجز فعلاً كلاميًا في الواقع"، فهذا الاتجاه قد أتاح للمستمع الكشف عن مقاصد المتكلم في مختلف المقامات(١).

هذا وتعد "نظرية الأفعال الكلامية" أهم نظرية في اللسانيات؛ حيث إن دراسة هذه الأفعال وما يفعله المتكلمون باللغة من تأثير وتبليغ وإنجاز أفعال تعدّ من أهم مجالات الدراسات التداولية على الإطلاق، وذلك بوصفها تمثل البنية الصغرى التي يتعين تحليلها والوقوف على طبيعتها قبل الانتقال إلى البنية الكبرى التي تتمثل في مختلف أنواع التبادل في مجتمع من المجتمعات(٢).

ومن هذا المنطلق كان اختياري لهذا البحث الذي جاء عنوانه: (**الأفعال الكلامية في آيات التعجيز في القرآن الكريم: دراسة تداولية**).

وأهم ما سأركز عليه في هذه الدراسة هو إسقاط هذه الأفعال الكلامية التي تمثل محور النظرية التداولية والإنابة في هذه النظرية والتي تحاول الجمع بين التركيب والدلالة والسياق، وتعمل على استثمار الظروف المحيطة على نصوص آيات التعجيز في توضيح المعاني المطلوب إيصالها للمخاطب ووصفها وتحليلها، ثم إبراز مدى تأثيرها في الخطاب ودورها في عملية التواصل والإبلاغ.

---

(١) أفعال الكلام في سورة مريم: دراسة تداولية، صباح حدادي، وسوسن بوغداس، (رسالة ماجستير)، ٢٠١٦.٢٠١٧م، ٦.

(٢) الأفعال الكلامية في سورة الكهف: دراسة تداولية، آمنة لعور، (رسالة ماجستير)، ٢٠١٠.٢٠١١م، ٨.

أسباب اختيار الموضوع:

وأما عن سبب اختياري لهذا الموضوع، فهناك أسباب ذاتية وأخرى موضوعية، فالذاتية تتمثل في حبنا للقرآن الكريم؛ لأنه كلام الله المقدس المتعبد بتلاوته.

أما الأسباب الموضوعية فتتمثل في:

١. العلاقة الوطيدة بين الدراسات اللغوية والقرآن الكريم؛ جعلت الكثير من البحوث العلمية تجد ضالتها فيما تطمح إليه من اكتشاف في حقل أبعاد هذه العلاقة المتجددة، وانسجام ما هو نظري في مستويات اللغة مع ما هو تطبيقي في نصوص الآيات القرآنية.

٢. أن القرآن الكريم يحفل بالكثير من الأساليب التي خرجت عن معناها الأصيل وأفادت معاني أخرى، فكل آية لا يمكن أن تخلو من أسلوب أمر أو استفهام لما تحتويه هذه الأغراض التعبيرية من سمات دلالية توحي بالمعاني المقصود إيرادها.

٣. استقراء وتعليل كل ما له علاقة بهذا المجال الخصب في البحث التداولي للوصول إلى الهدف المرجو وهو إزالة شيء من الغموض عنه والتعمق أكثر فأكثر في فهم المراد من الآيات الكريمة.

٤. الكشف عن أهمية أفعال الكلام في العملية التبليغية التواصلية هذا من جهة، ومن جهة أخرى إسقاط هذه الأفعال على بعض من النصوص القرآنية (آيات التعجيز) بهدف الربط بين الدرس اللساني التداولي وبعض تلك النصوص، وهذا من خلال تقصي هذه الأفعال واستخراجها ودراستها بشيء من الوصف والتحليل.

أهمية الموضـــوع:

١. كون القرآن الكريم في نظمه نمطًا واحدًا في القوة والإبداع؛ لأنه منزل من الله . سبحانه وتعالى ..

٢. ما انفردت به آيات التعجيز من خصائص تفردت بها عن باقي الآيات، كالإكثار من أساليب الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والشدة واللين، وتضمنها لقصص الأقوام السابقة، وأصحاب الجنة والنار وغير ذلك.

٣. أن البحث يمثل جانبًا تطبيقيًا للون مهم من ألوان التداولية، وهو الأفعال الكلامية.

٤. استخراج الأفعال الكلامية الواردة في آيات التعجيز على اختلافها، للوصول إلى معنى المعنى منها.

أهداف الموضـــوع:

يمكن تلخيص الأهداف المرجوة من البحث، فيما يأتي:

١. التأصيل لظاهرة الأفعال الكلامية على مستوى التنظير والتطبيق، باحثة عن منطلقاتها، كاشفة عن أسسها، محاولة الإجابة عن التساؤلات التي يفرضها الموضوع.

٢. السعي إلى إيجاد مقاربة بين التراث اللغوي والمناهج البحثية الحديثة، وربط جسور التواصل المعرفية بين الجميع.

٣. الشرعية في بيان البعد التداولي الوظيفي على وجه العموم، وفي ظاهرة الأفعال الكلامية على وجه الخصوص.

إشــكالية البحــث:

بناءً على ما سبق، جاز أن نتساءل حول ظاهرة الأفعال الكلامية:

١. هل هي ظاهرة لا تحمل إلا الجانب اللفظي/المصطلحي منه؟ أو بعبارة أخرى: هل الأفعال الكلامية ما هي في جوهرها إلا اكتشاف لصرح أثري عظيم عكف اللغويون عليه ببراعة فائقة؟

٢. ماذا تحمل هذه الظاهرة في طياتها من عوامل تشير بتطور موضوعي؟ وكيف السبيل إلى فهم تلك المقاصد، وكيف يمكن فك ذلك التشابك الدلالي؟

٣. هل ظاهرة الأفعال الكلامية ظاهرة عربية في حد ذاتها لها جانبها النظري والتطبيقي معًا؟ أم هي مجرد أفكار ومناهج غربية، طبقت على نصوص عربية؟

٤. هل تعدد مقاصد الأفعال الكلامية لتعدد صيغها،بمراعاة السياقات المختلفة؟

٥. ما مدى وظيفة الأفعال الكلامية في توجيه المعنى لآيات التعجيز في القرآن الكريم؟

الدراسات الســـابقة:

لم أقف . في حدود بحثي ومطالعتي . على تناول بحث مفرد لهذا الموضوع، كما لم أعثر على رسالة علمية تناولت هذا الموضوع دراسة تداولية، وإنما الذي عثرت عليه يتمثل في مجموعة رسائل علمية تناولت

سورًا من القرآن الكريم في جملتها غير متعرضة لآيات التعجيز بالتحديد إذا وجد فيها، وقد لا يوجد، ومن هذه الرسائل:

١. رسالة ماجستير، لآمنه لعور، بعنوان: "الأفعال الكلامية في سورة الكهف: دراسة تداولية"، ٢٠١٠.٢٠١١م.

٢. رسالة دكتوراه، لمحمد مدور، بعنوان: "الأفعال الكلامية في القرآن الكريم (سورة البقرة: دراسة تداولية)، ٢٠١٣م.

٣. رسالة ماجستير، لمحمد شمخي جبر، بعنوان: "السور المسبحات: دراسة تداولية"، ٢٠١٥.٢٠١٦م.

٤. رسالة ماجستير، لصباح حدادي، بعنوان: "أفعال الكلام في سورة مريم: دراسة تداولية"، ٢٠١٦.٢٠١٧م.

منهج البحـــث:

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي؛ لأنه الأنسب لهذه الدراسة العلمية، وما يتبع المنهج من تحليل وتقرير واستنباط، وذلك من خلال ما يلي:

١. جمع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع البحث وكتابتها، وعزوها إلى سورها في ضوء مصحف المدينة المنورة.

٢. توزيع الآيات القرآنية التي تمّ جمعها إلى مقاصد حسب موضوعاتها في مباحث البحث ما أمكن.

٣. الرجوع إلى كتب التفاسير القديمة والحديثة، وتحليل الآيات المتعلقة بموضوع الدراسة والبحث في ضوء هذه النظرية.

٤. شرح الألفاظ الغامضة، وبيان معانيها مستعينة في ذلك بالكتب المتخصصة وأمهات المعاجم اللغوية.

٥. عرض آراء وأقوال العلماء المتعلقة بالجزئية المدروسة من مصادرها الأصلية ومناقشتها وإبداء الرأي فيها.

٦. بيان السياق العام والتحليل التداولي للآيات، مع محاولة الربط بين الأفعال الكلامية وبين مقصود الآية ما أمكن ذلك.

الصعـــاب:

ولم تكن مهمتنا في هذا العمل بمنأى عن الصعاب والعوائق التي يتقدمها تعذر الحصول على مادة علمية متْبلورة بمنهج قائم بذاته في التراث اللغوي العربي، وخاصة فيما يتعلق بالجانب التداولي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الوقوف على المعنى والسياق ما يزال يحتاج إلى قراءات عميقة، قراءات تقوم على فهم العلاقات الدلالية والسياقية في آيات الخطاب القرآني، وهو ما قد يكون واحدة من أكثر القضايا صعوبة في هذا البحث، من جهة أن دلالة التعجيز في آيات القرآن الكريم تقوم على اعتبار دلالي تركيبي، وفهم عميق لبنية المعنى فيها والسبب من صعوبة هذا الأمر.

خطة البحـــث:

وقد مكَّن هذا المنهج من توجيه مسار خطة انتظم وفقها هذا البحث، والتي تألفت من جانبين:

١. **الجانب النظري:** وتألف من مقدمة وتمهيد.

٢. **الجانب التطبيقي:** وتألف من أربعة مباحث.

ففي المقدمة: تناولت أسباب اختيار الموضوع، وأهميته، وأهدافه، وإشكالية البحث، والدراسات السابقة، ومنهج البحث، وصعوبته.

التمهيد: وعنوانه: "**حدود المعاني للتداولية والأفعال الكلامية في آيات التعجيز**"، وهذا ما جعلني أقسمه إلى ثلاثة عناصر تتمايز بمعانيها اللغوية، وتبرز بعض ملامح اشتراكها مع النظرية التداولية، فتناول:

أولاً : التداولية: مفهومها . نشأتها . تطورها.

ثانيًا : الأفعال الكلامية.

ثالثًا : مفهوم التعجيز عند علماء اللغة.

وفي الجانب التطبيقي:

المبحث الأول: بعنوان: **الأثر التداولي لأفعال الكلام في أسلوب الأمر.**

المبحث الثاني: بعنوان: **الأثر التداولي لأفعال الكلام بصيغ مخصوصة للأمر.**

المبحث الثالث: بعنوان: **الأثر التداولي لأفعال الكلام في أسلوب الاستفهام.**

المبحث الرابع: بعنوان: **الاسترسال التداولي لأفعال الكلام بين الأمر والاستفهام.**

الخاتمة: وقد جمعت فيها أهم النتائج العامة التي تراءت لي أهميتها والتي تتفق ومضمون البحث وتبين خصوصيته العلمية، مع تسجيل أبرز توصيات البحث.

اللهم نسألك التوفيق في المسعى، فأنت الموفِّقُ مسدِّد الخُطى إلى ما فيه صلاحنا حتى ترضى، فلك الحمد عند الرضا، ولك الحمد بعد الرضا.

وآخر دعواي أن الحمد للّه رب العالمين

الباحثة

التمهيد

حدود المعاني للتداولية والأفعال الكلامية في آيات التعجيز

أولاً ـ التداولية .. مفهومها .. نشأتها وتطورها:

ـ التداولية ـ مفهومها (لغةً واصطلاحًا):

لغة تعني: التحول من مكان إلى مكان، قال ابن فارس: "الدَّالُ وَالْوَاوُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى تَحَوُّلِ شَيْءٍ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ وَاسْتِرْخَاءٍ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: انْدَالَ الْقَوْمُ، إِذَا تَحَوَّلُوا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ تَدَاوَلَ الْقَوْمُ الشَّيْءَ بَيْنَهُمْ: إِذَا صَارَ مِنْ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، وَالدَّوْلَةُ وَالدُّولَةُ لُغَتَانِ. وَيُقَالُ بَلِ الدُّولَةُ فِي الْمَالِ وَالدَّوْلَةُ فِي الْحَرْبِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ قِيَاسِ الْبَابِ; لِأَنَّهُ أَمْرٌ يَتَدَاوَلُونَهُ، فَيَتَحَوَّلُ مِنْ هَذَا إِلَى ذَاكَ، وَمِنْ ذَاكَ إِلَى هَذَا"(١).

وقد أفاد اللغويون من المعجم القرآني في استشراف هذه المادة ولاسيما (التداولية)، ومن الشواهد القرآنية التي وردت فيها التداولية بمعناها اللغوي قوله تعالى: **﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾**(٢)، وقوله تعالى: **﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء﴾**(٣).

(١) مقاييس اللغة، دار الفكر، ١٣٩٩هـ .١٩٧٩م، ٣١٤/٢ (د و ل).
(٢) آل عمران: من الآية (١٤٠).
(٣) الحشر: من الآية (٧).

يتبين من الآيات المباركات أنَّ التداول يأتي بمعنى التحول وعدم الثبوت؛ فهي لا تختلف كثيرًا عن معناها اللغوي؛ إذ يفهم منها انتقال الملك والتعاقب والتناوب على أمرٍ ما(١).

اصطلاحًا: لقد اختلف علماء اللغة في تعريف التداولية نظرًا لاتساع مجالها المعارفي الذي يتشابك بالعديد من العلوم مما أدَّى إلى صعوبة وضع تعريف خاص بها يلم بآفاقها وانشغالاتها(٢).

ومن أقدم التعريفات الاصطلاحية التي جرت على التداولية ما ذكره (شارلز موريس) عام ١٩٣٨م؛ حيث يدل على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها: علم العلامات أو السيميَّة، وهي علم التركيب، وعلم الدلالة، والتداولية، وهي فرع لساني يعنى بدراسة التواصل بين المتكلم والمتلقي، أو بمعنى آخر تعي بدراسة الرموز التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل، والعوامل المؤثرة في اختيار رموز معينة دون أخرى، والعلاقة بين الكلام وسياق حاله، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب في الكلام(٣).

فهي:" فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف مقاصد المتكلم (Speaker meaning) أو دراسة معنى المتكلم (Speaker intentions)، فقول القائل: أنا عطشان مثلا قد يعني: أحضر لي كوبًا من الماء، وليس من اللازم أن يكون إخبارًا بأنه عطشان؛ فالمتكلم كثيرًا ما يعني أكثر مما

(١) الفعل الكلامي في سورة الأنفال، قراءة تداولية، حسين جعفر عبيد، جامعة بابل للعلوم الإنسانية، ٢٧٤.

(٢) أفعال الكلام في سورة مريم، ٩.

(٣) الفعل الكلامي في سورة الأنفال، ٢٧٥.

تقولـه كلماتـه، وإذا كـان ذلـك كـذلك فكيـف يمكـن للنـاس أن يفهـم بعضـهم بعضًا؟"[١].

أنها "دراسة جوانب السياق التي تُشَفَّر شكليًا في تراكيب اللغة، وهي عندئذٍ جزء من مقدرة المستعمل"[٢]، وحقيق بنا أن نقول أن: "التداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم ... التداولية هي دراسة المعنى السياقي ... هي دراسة كيفية إيصال أكثر مما يُقال"[٣].

ـ التداولية ـ نشأتها وتطورها:

أ) عند الغرب:

يظن بعض الباحثين في الدرس اللغوي المعاصر أن نشأة التداولية جاءت نتيجة أعمال فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي في جامعة أكسفورد، وهم جون أوستين (J.L. Austin)، وجون سيرل (J.R. Searle) وجرايس (H.P.Grice).

(١) السور المسبحات: دراسة تداولية، محمد شمخي جبر، (رسالة ماجستير)، ٢٠١٥. ٢٠١٦م، ٧.

(٢) السور المسبحات، ٧.

(٣) التداولية، جورج يول، ترجمة: قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠م، ١٩.

إلا أن البحث في أصول التداولية يصل بنا حقيقة ترجح أن الأرض التي نبتت عليها التداولية هي الفلسفة التحليلية؛ لأنها الينبوع المعرفي لأول مفهوم تداولي وهو الأفعال الكلامية(١).

في بدايات القرن العشرين ظهر اتجاه فلسفي بزعامة الفيلسوف الألماني "جوتلوب فريجه" (Gottlop Frege) (١٨٤٨.١٩٢٥) في كتابه "أسس الحساب" ميَّز فريجه في كتابه بين مقولتين لغويتين تتباينان مفهوميًا ووظيفيًا وهما: اسم العلم والاسم المحمول، وعماد القضية الحملية.

وحين تكون القضية دالة على علاقة واحدية نسميها قضية حملية، وحين تدل على العلاقات الأخرى نسميها قضية علاقية وليست حملية"(٢).

لقد ميَّز الفيلسوف الألماني "فريجه" بين اسم العلم والاسم المحمول، ومن الأمور التي ميز بينها هذا الفيلسوف تمييزه بين المعنى والمرجع محدثًا قطيعة معرفية ومنهجية بين الفلسفتين القديمة والحديثة، كما أنه جمع بين بعدين تداوليين مهمين هما الإحالة والاقتضاء"(٣).

واعتبر الألفاظ (كل وبعض، وواحد، واثنان) لا معنى لها إذا دخلت على علَم، بل العكس؛ فعند دخولها على علَم قد تفسد، فلا يمكن القول: كل محمد، أو بعض محمد، أما إذا دخلت على محمول فإنها تأتي بمعنى جديد

(١) التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م، ١٧.
(٢) في فلسفة اللغة، لمحمود فهمي زيدان، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م، ١٢.
(٣) التداولية عند العلماء العرب، ٢٠.

فنقول مثلاً: كل متعلم، كل موظف، وتعد هذه المباحث عند الفلاسفة ذات قيمة عالية، وتعد ثورة وانقلابًا فلسفيًا جديدًا[١].

ب) عند العرب:

تميزت الدراسات اللغوية في التراث العربي بالاهتمام ببعض الجوانب التي تُعّد اليوم من أهم المبادئ التي تأسست عليها اللسانيات التداولية، حيث اهتم الدارسون القدامى بدراسة النص باعتباره خطابًا متكاملاً متجاوزة بذلك مجرد وصف البنية والشكل النحوي وكل ما له علاقة بعملية التواصل اللغوي .كما اهتموأ بمعيار الصدق والكذب ومطابقة الخطاب للواقع وعدمه ومراعاة المقام ومطابقته لمقتضى الحال.

وتبدو هذه السمات التداولية واضحة المعالم في أعمال بعض الباحثين القدامى، نحو:

الجاحظ (ت:٢٥٥هـ): فالبيان عند الجاحظ هو: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام. فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[٢].

(١) المصدر السابق، ٢٨.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الهلال . بيروت، (د.ط)، ١٤٢٣هـ، ١/١١.

الشافعي (ت:٣٩٥هـ) في: الرسالة، **وابن جني (ت:٣٩٢هـ)** في: الخصائص، **وأحمد بن فارس (ت:٣٩٥هـ)** في: فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، **والزمخشري (ت:٥٣٨هـ)** في: الكشاف.

كما تبدو هذه المبادئ في أعمال:

السكاكي (ت:٦٢٦هـ): فقد بدت ملامح الاتجاه التداولي في أعماله، واهتمامه بعناصر العملية التواصلية وربطها بمقتضى الحال، ويرى أنه لكل من هذين الطرفين (المتكلم/ المتلقي) دور فعال في تحديد المقصد وتبليغه وفهمه.

هذا إلى جانب بعض الأعمال الحداثية من مثل:

طه عبدالرحمن الذي قام بوضع مصطلح (التداولية) كمقابل للمصطلح الأجنبي Pragmatique (١٩٧٠)، وتتجلى ملامح البحث التداولي عنده من خلال اهتمامه بالكلام والعملية التخاطبية ككل، إذ يقول في هذا الصدد: "ولمّا كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوده فائدتها الإخبارية أو قبل "فائدتها التواصلية" نسميها بقواعد "التبليغ"، علمًا بأن مصطلح "التبليغ" موضوع للدلالة على التواصل الخاص بالإنسان"[١].

أما "**أحمد المتوكل**" فيُعدّ من أبرز ممثلي الاتجاه التداولي.

(١) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت . لبنان، ط١، ١٩٩٨م، ٢٣٧.

ومهما يكن من أمر فيمكن إجمال ما تقدم بالقول: إن التداولية منهج في تحليل الخطاب تبحث عن كل ما من شأنه أن يقرِّب الفهم والتواصل بين المتكلم والسامع(١).

ـ المفاهيم الأساسية للتداولية:

تأسست التداولية على مفاهيم كثيرة، سأكتفي بأهمها حتى يمكِّن للدارس من التعرف على المنهج التداولي ونظرّياته، وهي:

١. **الفعل (Acte):** حيث إن اللغة تتجلى في كونها نشاطًا عمليًا يسعى إلى تحويل الملفوظات إلى أفعال لها وضعيتها الاجتماعية، والكلام هو تحقيق الأفعال مسيَّرة وفق مجموعة من القواعد من شأنها تغيير معتقداته ووصفه السلوكي لما تمارسه من تأثير(٢)، ويترتب على ذلك أن فهم قول معين يعني التعرف بمحتواه الاجتماعي وتوجهه التداولي، أي قيمته وقوّته الكلامية فيما يسمى عبارات مؤدية.

٢. **السياق (Context):** يتضح السياق في مقدمة مفاهيم التداولية حسب تصنيف (فرانسواز أرمينكو)، والمراد بالسياق: مجموعة الشروط الاجتماعية (الموقف الفعلي) التي تأخذ بعين الاعتبار دراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة، وهي المعطيات

(١) الفعل الكلامي في سورة الأنفال، ٢٧٥.

(٢) في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراء)، نواري سعودي أبو زيد، بيت الحكمة العلمة، الجزائر، ط١، ٢٦، ٢٧.

المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية، والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما[١].

ـ التداولية وعلاقتها بالأفعال الكلامية:

"ولفظة التداول تفيد في العلم الحديث الممارسة، ويعبر عنها بـ(LAPRASCIS) والتي تفيد تمام الدراسة، وتفيد أيضًا التفاعل في التخاطب...."[٢]. (والخطابات التوجيهية تخرج من إطار التناوب في أخذ الكلمة، ذلك بأنها تجعل المتلقي للخطاب محل طرف مالك المعارف، أما الطرف المتلقي فما عليه إلا الأخذ أو الاستماع وعليه يتبلور مصطلح التداولية كممارسة ويعني امتلاك اللغة وجريان الكلام على الألسن، أي من التلفظ ذاته كعملية خاصة بالفرد والتي تتجلى في ممارسة اللغة إلى هدف إيصال الرسالة أو الخطاب إلى المخاطب والتأثير عليه ضمن عنصر التفاعلية، فالتلفظ إذن أساس التداولية في الشكل الظاهري؛ إذ من دون الأولى لا تتحدد الثانية كعملية، وكلتا العمليتان تخضعان إلى عامل السياق، الإطار المجهول الذي نبحث عنه في تبعية الخطاب في غيابه، حتى نتمكن من فهم الكلام والغرض منه.

وعليه، فإنه كلما توفر المتلقي على معلومات عن هذه المكونات (المتكلم) الملتقي للرسالة، الزمان، والمكان، ونوع الرسالة، تكون له خطوط

(١) التداولية عند العلماء العرب، ٤٤.

(٢) الدلاليات والتداوليات، أشكال الحدود، منشور ضمن البحث اللساني والسيميائي، طه عبدالرحمن، الرباط، المغرب، ط١، ١٩٨٤م، ٢٩٩.

قوية لفهم الرسالة وتأويلها، أي وضعها في سياق معين من أجل أن يكون لديها معنى[١].

ثانيًا ـ الأفعال الكلامية:

أ) الأفعال الكلامية في الفكر اللساني الغربي:

تُعدُّ الأفعال الكلامية من الموضوعات المهمة التي أسست لظهور علم التداولية، وهي الأفعال التي يكون لها إنجاز دلالي يقتضيه المقام أو السياق، فيخرج الملفوظ من معناه الحرفي إلى معنى آخر هو المقصود من العملية التواصلية.

وظهر أثر نظرية الاستعمال، أول ما ظهر في مدرسة (كمبردج) وخاصة في أعمال (أوستين)، ولاحقًا في أعمال فيلسوف اللغة (جون سيرل) صاحب نظرية أفعال الكلام، وبجهودهما تحولت الفلسفة اللغوية إلى مجال يبحث في مشكلات اللغة[٢]، ولا يقول أوستين بالتقسيم التقليدي للقضايا والجمل إلى خبرية وإنشائية، وبالتالي الاحتكام إلى معيار الصدق والكذب، وإنما ينطلق من موقف جديد، وهو أن الوحدة الأساسية للغة، هي الأفعال الكلامية، وإذا اعتبرنا الأقوال أفعالاً فإنها تسعى لتحقق شيئًا ما، وبالتالي فإن

(١) لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩١م، ٢٩٧.

(٢) الفلسفة واللغة (نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠٠٥، ١٠٤.

المسألة لا تتعلق بالصدق والكذب فقط، وإنما بالسياق والمناسبة التي تمّ فيها الفعل أيضًا(١).

إن مصطلح الأفعال الكلامية ترجمة للمقابل الإنجليزي Speech acts، وحين نتحدث عن الفعل نقصد به الحدوث والوقوع، ومن ثمَّ إنجاز الأفعال بمعنى الإنشاء والابتكار، وعليه فالإنشاء، ما يحصل مدلوله في الخارج بالكلام، وهذا المعنى للإنشاء هو الذي يقدمه (أوستين)، فنحن ننجز الأشياء بالكلام، أي نخرجها من حيز العدم إلى الوجود(٢).

"ومن الضروري أن لا يغيب عن ذي بال أن فعل الكلام شامل للمنجز الكلامي، والمنجز الكتابي"(٣)، وعلى مستويات الدراسات النصيَّة فإن الفعل الكلامي يمثل التأكيد على أشياء، أو إعطاء أوامر، أو إثارة أسئلة، أو القيام بوعود، أو غير ذلك من الأفعال التداولية التي تركز على تأويل النصوص باعتبارها أفعالاً للغة: كالوعود، والتهديدات، والاستفهام، والطلبات. ومن ثمَّ فعبارة المتكلم عن قصده هي إنجاز فعل، وترمي الأفعال إلى صناعة مواقف بالكلمات مع الميل إلى التأثير في المخاطب، بحمله على فعل، أو ترك، أو تقرير حكم، أو إبرام عقد، أو إفصاح عن حالة نفسية.

إن النتائج الأولية التي توصل إليها أوستين في الخمسينيات خضعت لدراسة نقدية مكثفة، شارك فيها فلاسفة، مثل: ستراوس، كوهين، سيرل،

---

(١) المرجع نفسه، ١٠٦.

(٢) الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي أدراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١١م، ٧٣.

(٣) محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، منشورات جامعة باجي مختار عنابة، ٢٠٠٦م، ١٩٣.

وفاندرفكن. "ويرى أوستين أن الأقوال ليست خالية من المعنى، ومن تحديد السمات المميزة لها، وأهم تلك السمات هي: ارتباطها بالمتكلم وبالموقف الذي تقال فيه، ومن ثمَّ نحكم بأنها ملائمة أو غير ملائمة"(١).

ثم راح أوستين يوسع المفهوم ليشمل جميع الجمل، حتى تلك التي تقبل الصدق والكذب، فأنتج بذلك فلسفة عامة للغة، ثم مضى يثبت أن هناك من العبارات الإخبارية لا تصف شيئًا في الواقع الخارجي، ولا توصف بالصدق أو الكذب، فهي إنشائية.

فمثلاً: إذا قيل لك: ما اسم مولودك؟ قلت: سميته يحيى، أو في جملة أخرى: أوصي بنصف مالي للجمعيات الخيرية، أو في عبارة: زوجتك ابنتي. فهذا النوع من الجمل إذا نطقت به فإنك لا تلقي قولاً، بل تنجز قولاً(٢).

فأطلق أوستين على هذه الأفعال مصطلح الأفعال الإنجازية Performative، وجعل ميزتها أنها تستخدم لإنجاز فعل (كالتسمية، الوصية، التزويج، الاعتذار، الترحيب، أو النصح ... إلخ). فهي لا توصف بصدق أو بكذب، بل تكون موفقة أو خائبة إذا راعى المتكلم شروط أدائها، وكان أهلاً لفعلها إنَّ ما وضع تحت الإنشائيات هو جمل تقال لا لوصف، إنما التلفظ بها هو جزء من القيام بفعل.

(١) علم اللغة الاجتماعي، محمد حسن عبدالعزيز، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م، ٣٢٤.

(٢) نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، طالب سيد هاشم الطبطائي، جامعة الكويت، ١٩٩٤م، ٤.

ولاحظ أوستين أن هذه الأفعال في اللغة الإنجليزية يستخدم معها غالبًا ضمير المتكلم مسندًا إليه، والفعل في صيغة المضارع المبنى للمعلوم، وقسم أوستين الأفعال الإنجازية إلى نوعين:

١. إنشائيات صريحة مثل قولنا: آمرك أن تعرض عن الجاهلية.

٢. إنشائيات ضمنية أولية مثل قولنا: اعرض عن الجاهلية[١].

ولقد وجد أوستين أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال تُؤَدَّي في وقت التلفظ بالفعل، وهي: (١. فعل القول، ٢. فعل متضمن في القول، ٣. فعل ناتج عن القول)، فهي ليست أفعالاً ثلاثة يستطيع المتكلم أن يؤديها واحدًا تلو الآخر، بل هي جوانب لفعل واحد[٢]، مركب من ثلاثة أقوال:

أ) **الفعل اللفظي:** وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

ب) **الفعل الإنجازي:** وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف الأصلي، أو يعني به محاولة المتحدث إنجاز غرض تواصلي معين.

(١) تعديل القوة الإنجازية، محمد العبد، مجلة فصول، ع٦٥، ٢٠٠٦م، ١٣٧.

(٢) نظرية الأفعال الكلامية، الطبطائي، ٤، وينظر: آفاق جديدة للبحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٦م، ٩١.

ج) **الفعل التأثيري**: ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع[١].

وعمد أوستين إلى تقسيم الأفعال الكلامية إلى نوعين:

١. **أفعال إخبارية (تقريرية)**: وهي أفعال تصف حقائق العالم الخارجي، ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، نحو: (السماء تمطر) فهي تنقل معلومة إلى المتلقي أو تقرر واقعًا، وتوصف بالصدق إذا كان المطر حادثًا، كما توصف بالكذب إذا كان المطر غير حادث. وقد سمَّي أوستين الجمل التي تحتوي على هذا النوع من الأفعال بـ(الجمل الوصفية) التي تصف حدثًا أو حالة معينة من دون حصول فعل.

٢. **أفعال إنشائية (أدائية)**: تُؤدَّي بها أفعال في ظروف ملائمة، ولا توصف بصدق ولا كذبٍ، وإنما تكون ناجحة، طبقًا لمعيار الموائمة والمخالفة، وكون المتكلم مؤهلاً للقيام بالفعل، نحو: (أوصي بساعتي لأخي)، فهذا المنطوق لا يؤدي إلى قول فحسب، وإنما يؤدي إلى وقوع فعل هو الوصية، ويدخل فيها (التسمية، والاعتذار، والرهان، والنصح، والإرشاد)[٢].

ـ جهود (سيرل):

جاء (سيرل) ليكمل ما بدأه أوستين، فيرى (سيرل) بمشاركة (فاندرفكن) أن الفعل الإنجازي هو وحدة الاتصال الإنساني باللغة، فالفعل الإنجازي هو

(١) الفعل الكلامي في سورة الأنفال، ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

الوحدة الأولية لمعنى الجملة، وهو الوحدة الأولية للاتصال"[1]. وأعاد (سيرل) النظر في تصنيف (أوستين) للأفعال الإنجازية، فبيَّن ما فيه من ضعف، وقدم تصْنيفًا بديلاً، وقد جعله خمسة أصناف:

١. **الإخباريات (التقريريات) Assrtives**: والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية.

٢. **الوعديات (الالتزاميات) Commissives**: وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل.

٣. **التوجيهات (الأمريات) Directives**: وغرضها الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما.

٤. **التعبيريات (البوحيات) Expressives**: وغرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي.

٥. **الإعلانيات (الإيقاعيات) Declaratives**: والغرض منها إحداث تغيير.

ب) الأفعال الكلامية في التراث اللغوي العربي:

لقد تنبّه العرب القدامى إلى ظاهرة الأفعال الكلامية، واعتبروها فروعًا ويشكل ذلك تقدمًا لا مثيل له في الدراسات اللغوية والأسلوبية، وبدراسة نظرية الخبر والإنشاء عند العرب تبين الأدوات المنهجية لدراستهم لظاهرة (الأفعال الكلامية) التي تندرج ضمن مباحث علم المعاني، وقد كانت ظاهرة الخبر والإنشاء حقلاً مشتركًا بين علوم الفلسفة والبلاغة، والنحو، والأصول،

(١) تعديل القوة الإنجازية، محمد العبد، ٦٥.

وتتجلى تطبيقاتهم في كتبهم وشرحهم مركزين على أبعادها التداولية[1] خاصة، عرفية الاستعمال، وقصدية المتكلم، وأدرجوا هذه المباحث تحت مفهوم الأغراض البلاغية للأساليب التي تقابل الأفعال الكلامية.

والذي نسعى إليه من خلال هذا البحث هو استثمار هذه النظرية في آيات التعجيز في القرآن الكريم؛ من أجل الوقوف على الجهود التي قدمها علماء العرب في هذا المجال.

ج) دلالة الإقناع من خلال الأفعال الكلامية:

ليست مهمة البحث هنا رصد مختلف أفعال الكلام Actes deparoles من خبر وإنشاء؛ لأن كل كلام قائم على هذا الأمر وخاصة ذلك المتعلق بالرسالة الموجهة إلى مخاطبين معينين من أجل بلاغ معتقد، أو إبلاغ معرفة، أو تبليغ وجهات نظر. ولكن البحث يركز على قوى أفعال الكلام Actes ilocutoires ، أي ضروب العبارات التي لها صفة المواضعة وقوتها وقيمتها، كما تتطرق إلى لوازم أفعال الكلام هذه Actes perlocutoires التي تدل على أن ما يحدثه الفاعل طبقًا لقول ما يكون إنفاذه تامًا ووقع الفراغ منه كالحمل على الاعتقاد والوصول إلى الإقناع أو الترك[2].

يتعين علينا إذًا أن ندرك العلاقة بين القائم بفعل القول وتحقيقه وبين آثاره ونتائجه، وبما أن الخطاب القرآني كله يمكن اعتباره حوارًا مع مختلف

(١) علم اللغة الاجتماعي، ٣٢٤.

(٢) نظرية أفعال الكلام العامة .كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستين، ترجمة: عبدالقادر قنيني، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ١٩٩١م، ١٣١.

أصناف المخاطبين، فإن النتائج والآثار تتجلى من خلال أدوارهم الواقعة أو المفترضة؛ أو من خلال ما ينتج عن أفعال الكلام ذاتها على الرغم من أن أوستين (Austin) يرى أن "نتائج حدوث الفعل ليست من صنف القول ولا من صنف وقوعه على وجه من الوجوه"(١)؛ لأن لازم المحصل عليها من متضمنات القول التي هي في الأصل مترتبة عن تلقي فعل الكلام وليس عن الكلام ذاته بدليل أن ما يفهمه ويتأثر به متلق في سياق قد لا يحدث عند متلق آخر. هي إذن دواعي الإقناع والنفوذ الخاص بصاحب الكلام وسريان الأثر إذا ما أدى إلى نتائج معينة، وسواء تعلق الأمر بالخبر أو الإنشاء، فإن قوة أفعال الكلام تكمن في الأثر الذي يتولد من القول، والذي لا يتحقق بدوره إلا بأمرين اثنين، هما:

١. بيان وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها.

٢. المعاني المستفادة من الكلام ضمنًا بمعونة القرائن(٢).

ثالثًا ـ مفهوم التعجيز عند علماء اللغة (لغةً واصطلاحًا):

لغة: يقول ابن فارس: "العين والجيم والزاي أصلان صحيحان، يدل أحدُهُما على الضّعْف، والآخر على مُؤَخَّرِ الشيء، فالأول: عَجِزَ عن الشيء يَعجِزُ عَجْزًا فهو عاجز، أي ضعيف، وقولُهُم: إن العَجْزَ نقيضُ

(١) نظرية أفعال الكلام العامة، ١٣٣.

(٢) علم المعاني في البلاغة العربية، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت . لبنان، ١٤٣٠هـ .٢٠٠٩م، ٣٧.

الحَزْمِ؛ لأنه يَضْعُفُ رأْيُهُ، ويقولون: "المْرءُ يَعْجزُ لا المحالة"(١)، ويقال: أعْجَزَني فلان إذا عَجِزْتُ عن طلبه وإدراكه، ولن يُعْجِزُ الله. تعالى. شيءُ، أي: لا يَعْجِز الله. تعالى. عنه متى شاء، وفي القرآن الكريم: ﴿**وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا**﴾(٣)، ويقولون: عَجَز بفتح الجيم، ولا يقال: عَجِز إلا إذا عَظُمتْ عجيزَتُهُ، ومن الباب: العَجُوزُ: المرأة الشَّيْخةُ، وأما الأصلُ الآخَرُ فالعَجُز: مؤخَّرُ الشيء والجمع: أعَجازُ، حتى إنهم يقولون: عجُزُ الأمر، وأعجازُ الأمور"(٤)، وهذه الدلالة لم تتغير في كتاب الله. تعالى. فقد جاءت بمعنى مؤخر، الشيء، كما في قوله. تعالى .: ﴿**تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ**﴾(٥)، وأيضًا بمعنى عدم القدرة، كما في قوله. سبحانه .: ﴿**قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ**﴾(٦).

وقد يظن القارئ أن الأصلين لا صلة بينهما، ولكن "الصلة بينهما موجودة، فإن الضعف من ولائد التأخر، فالذي يعجز عن الأمر، أي يضعف عنه، إنما هو آتيه في آخر ذلك الأمر، فلا يستقيم له الاقتدار عليه ... وكل

---

(١) المرء يضجر من طلب الحاجة ويتركها ولو استمر على طلبها والاحتيال لها أدركها فإنّ الحيلة واسعة فهي ممكنة غير معجزة، والمحالة والحيلة واحد. (جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، دار الفكر، بيروت، ٢/٢٧٤).

(٢) العنكبوت: الآية (٢٢).

(٣) الجن: الآية (١٢).

(٤) مقاييس اللغة، ٤/٢٣٢، ٢٣٣ (ع ج ز).

(٥) القمر: الآية (٢٠).

(٦) المائدة: من الآية (٣١).

من تأخر عن القيام بالأمر في عجزه: ضعف عنه، وأيضًا من حاول في آخر أمره شيئًا لم يقتدر عليه في أوله، فسواء أكان التأخير من شأن الفاعل أم من شأن المفعول فإنه يترتب على ذلك ضعف"(١).

اصطلاحًا: التعجيز محاولة من أحد طرفي الحوار جعل الآخر لا حول له ولا قوة، وذلك حين يطلب ما هو متعذِّر، أو في حكم المستحيل، "أو هو مطالبة المخاطب بعمل لا يقوى عليه؛ إظهارًا لعجزه وضعفه وعدم قدرته، وذلك من قبيل التحدّي"(٢).

ومن الممكن أن يقال: عجز كذا مع أنه لم يحاول ولم يرغب في المحاولة؛ ذلك لأنه يعلم علم اليقين أن هذه المعجزة خارجة عن طوقه؛ ولذا قالت الجن: ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا**﴾(٣)، فهم لم يحاولوا: ولم يدر بخلدهم أن يحاولوا.

ـ الفرق بين وجه التعجيز ووجه التحدي:

إن هناك فرقًا كبيرًا بين وجه التعجيز ووجه التحدي، ولعل أول من لفت النظر إلى هذه القضية هو ابن عطية، حين قال: "وجه التحدي في القرآن إنما هو بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحاط بالكلام كله علمًا يعلم بإحاطته أي

(١) إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة: دراسة ناقدة، محمود توفيق محمد سعد، ١٤٢٤هـ، ٣.
(٢) علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، ٨٠.
(٣) الجن: الآية (١٢).

لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره"[١].

فكل شيء في القرآن هو مناط إعجاز، وأن مناط التحدي هو نظمه، أي صورة المعنى وليس المعنى نفسه، فالمعنى القرآني نفسه معجز، ولكنه ليس هو مناط التحدي، والنظم القرآني معجز ومناط تحد"[٢].

وبناءً على ما سبق يمكن أن يتبادر إلى ذهني مجموعة من الأسئلة حول النص القرآني الذي سأحاول التطبيق عليه، وهي:

- كيف يمكن أن نضع أو نخضع النص القرآني . وهو نص خاص ومتميز عولج عند اللغويين ضمن مجاز القرآن وعند المتكلمين في إطار تأويل المشكل وتقنين المجاز ـ كل هذا داخل في فهم التنزيه عن الشذوذ والتناقض، ثم تلاه البحث عن المزية البديعية ضمن سؤال الإعجاز وهذا العمل يلتقي مع عمل اللغويين والأسلوبين المحدثين على استكشاف ما لم يستوعبه النحو ولم تستوعبه المعايير الصرفة، وكيف نخضعه إلى دراسة لغوية تمارس عليه سلطة التحليل كباقي النصوص الأخرى؛ لأن الكلام كثر قبله وطال؟[٣].
- ما دور الأفعال الكلامية كظاهرة تداولية في توجيه المعنى في النص القرآني؟

---

(١) إعجاز القرآن، محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٩م، ٢٥/١.

(٢) إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة، ٧٥.

(٣) البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب . لبنان، ٢٠١٠م، ٢٨.

- كيف يمكن أن نصل من خلال النص القرآني إلى اللغة، وما يردفه من توجيه وإرشاد للمتلقين والمخاطبين[1]؟ (الدراسة التداولية).

ومهما كانت الانطباعات والتصورات بشأن دلالة الأفعال الكلامية وأنماطها، ومميزاتها، ومرجعياتها، فإنها تنم عن العائد الدلالي لكيفيات الأداء المتميز، والقدرة الكامنة لمستوياتها التي تعجز بُنَي الألفاظ المألوفة عن تحقيقها.

(١) البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م، ٦٤.

الدراسة التطبيقية

طرق وأساليب أفعال الكلام لدلالة التعجيز

توطئة:

لم يقتصر القرآن الكريم في إقامة حججه وبراهينه على طريقة واحدة، بل تنوعت طرقه في عرضها لتكون ألزم للحجة، وأدعى إلى القبول والملاءمة لكل عقل بشري، وحالة نفسية في كل زمان ومكان، تحقيقًا لخلود القرآن الكريم وإعجازه إلى ما شاء الله تعالى.

وكان التعجيز والتحدي إحدى طرق إثبات هذه القضية التي سلكها القرآن الكريم وتعددت آيات التعجيز، وتنوعت بين عدة أساليب؛ لذا يهدف المبحث الآتي إلى الوقوف على الأساليب التي يسلكها القرآن الكريم في إقامة الحجج والبراهين. ولا أزعم أني سأضع بين يدي القارئ كل هذه الآيات، فهذا ما لا طاقة لبشر به مع كتاب لا تنضب معانيه، ولكنني سأحاول جاهدة أن أتحدث عن بعض منها ما استطعت إلى ذلك سبيلا؛ لذا فهذا الجانب يتناول الأساليب التي طبقها القرآن الكريم في إطار المحاور الرئيسة، وإنما كانت التسمية (طرق وأساليب)؛ لأن الطريقة أعم من الأسلوب، فالأسلوب يطبق في إطار الطريقة[1]، كما أن القارئ سيجد بعض أساليب حجج القرآن الكريم يرد ذكرها في أكثر من آية قرآنية، وليس هذا تكرار للأساليب، ولا تناقضًا في الأسلوب الذي سلكه النص أو الحجة، وإنما جاء ذلك نتيجة طبيعية لكون كثير من حجج القرآن الكريم تحمل أكثر من

(١) التنفيذ العملي للتدريس، محمد زياد حمدان، عمان، دار التربية الحديثة، ١٩٨٥م، ١٩٢/١ (بتصرف يسير).

أسلوب في التعجيز والتحدي، وسيلمس القارئ هذا الأمر، فالأسلوب القرآني هو: طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه[1]، ولقد تواضع العلماء قديمًا وحديثًا على أن للقرآن الكريم أسلوبًا خاصًا به مغايرًا لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف، فيتمخض هذا المعنى ويبرز في تلك المباحث التي سوف تأتي في هذا البحث.

إضافةً إلى ذلك فالقرآن الكريم باعتباره نص تأثيري فإنه لا يفصح عن معانيه الضمنية والتي لا نفهمها إلا من خلال السياق، وهذا بالتحديد ما يتجسد في نظرية الأفعال الكلامية[2]، والتي سأتناولها بالدراسة والتحليل خلال هذا البحث؛ للوقوف على هذه المعاني التداولية التي تحويها هذه الأفعال ودور السياق في تحديدها وأثره في المعنى العام، وسأحاول توظيف التداولية بوصفها آلية كاشفة عن الاستعمال من جهة، ومصورة الحال والمقام من جهة أخرى، في إصابة الدلالة المرادة.

أما بالنسبة للمنهجية المعتمدة في التطبيق، فإن آيات التعجيز مجموع مركب وغير قابل للتجزيء، هذا ما دفعني إلى عدم التعامل مع أجزاء من الآيات، بل تعاملت مع الآية ككل غير قابلة للتجزيء، ورصدت الفعل الإنجازي الأكثر تواترًا، وهو الذي مثل القوة الإنجازية في تلك الآيات.

وبناءً على ذلك مثَّلتْ كل آية من الآيات فعلاً كلاميًا أو جمعت بين عدد من الأفعال الإنجازية، وتستخدم الأفعال الإنجازية الأخرى في دعم هذا

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزقاني، عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٢هـ.١٩٤٣م، ١٩٩/٢.

(٢) أفعال الكلام في سورة مريم: دراسة تداولية، ٦١.

الفعل الإنجازي المهيمن، أي في تأكيد نجاحه، وتسمى أوجه إنجاز (مساعدة)، "ويحدث ذلك على أساس معارفَ نظامِ أنماطِ أفعالٍ إنجازية"(١).

كما يجب أن ينظر إلى الإنجاز بوصفه جانبًا قصديًا لفعل كلامي في سياق الموقف، ونحن إذ نبحث في أسلوبي الأمر والاستفهام ضمن آيات التعجيز ألفيت عددًا من الآيات في مختلف السور، تبرز ورود الأمر والاستفهام الحاملين على إنجاز فعلٍ ما في نماذج مصطفاة من آيات التعجيز في القرآن الكريم على النحو التالي:

(١) التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، تحقيق: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م، ١١٩.

المبحث الأول

الأثر التداولي لأفعال الكلام في أسلوب الأمر

توطئة:

يُعد أسلوب الأمر في البلاغة العربية واحدًا من الأفعال اللغوية الإنجازية المنشئة للأفعال في واقع الناس، وهو أسلوب أو فعل قولي مباشر، يهدف من ورائه إلى تغيير حال أو واقع ما وهو: طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام[1]، وللأمر أربع صيغ متفق عليها عند علماء اللغة والبلاغة وكذلك المفسرين: والصيغة الأكثر استعمالاً، فعل الأمر بصيغة (افْعَل).

يأتي فعل الأمر ضمن أفعال التنفيذ والتوجيه، ويكون إما بغرضه الأصلي الذي هو طلب التنفيذ على وجه الاستعلاء والإلزام، وإما بغرض وقصد آخر يقتضيه السياق والحال، وعندها يخرج الأمر إلى وظيفة أخرى وغرض آخر غير الغرض الأصلي له، عندها يكون الفعل الإنجازي غير مباشر، والأفعال الإنجازية كلها أفعال قصدية تهدف إلى التأثير والتغيير.

والقرآن الكريم ملئ بالآيات المتضمنة لهذا النوع من الأساليب التي تتخذ من الأمر صيغة لها لتحقيق مقاصد وأغراض إضافية (غرض التعجيز)، وخاصة تلك المتعلقة بمخاطبة ومحاورة الأنبياء ولأقوالهم لخير دليل على ما نقول وغالبًا ما يبنى أسلوب الأمر، أو فعل القرار على طرفين:

الأول: ويمثله الطرف الأدنى وهم الكفار.

(١) علم المعاني، عبدالعزيز عتيق، ٦٠.٥٨.

والثاني: ويمثله الله . عز وجل . والأنبياء[١]؛ ولهذا كان لفعل الأمر أهمية بالغة في تحريك النفوس وردعها وزجرها، وبيان ذلك كالتالي:

أولاً ـ تعجيز من الله ـ عز وجل ـ للكافرين:

توطئة:

عرض القرآن الكريم مسألة الشك في القرآن الكريم في غير آية وغير سورة، وبقيت آيات التعجيز والتحدي تتنزل تبعًا للمنهج الذي يقيمه المتشككون، واستمر ذلك إلى ما بعد هجرة الرسول ﷺ، وكان أخر ما نزل في مسألة التعجيز والتحدي آيات من سورة البقرة[٢]، نزلت في المدينة[٣]، وتمثل آيات التعجيز خطابين في القرآن الكريم:

أحدهما: إقامة التحدي فعليًا، وهو ما يساوي طلبًا حقيقيًا للإتيان بقرآن آخر. **والآخر:** إقامة التعجيز فعليًا، وهو ما يساوي نفيًا حقيقيًا للإتيان بقول آخر، وخطاب الله تعالى للكفار كان مباشرًا وغير مباشرٍ بوساطة رسوله الكريم ﷺ وكانت الأوامر عبارة عن أقوال كلامية، تحمل في مضمونها مقاصد تنفيذية وتوجيهية، وتحمل أوامر تدعو إلى التكليف بأعمال تعود بالفائدة، ومن أمثلة ما جاء في هذا الغرض لآيات التعجيز ما يأتي:

---

(١) لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل: دراسة أسلوبية دلالية، (رسالة ماجستير)، لافي محمد محمود زقوت، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين، ٧٦.

(٢) البقرة: الآيات (٣) إلى (٢٤).

(٣) أسباب نزول القرآن، الواحدي، تحقيق: عصام بن عبدالمحسن الحميدان، دار الإصلاح . الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ .١٩٩٢م، ٢٤. ونزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد خالد عمران سميح، تقديم ومراجعة: أحمد محمد مفلح، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ط١، ٢٠٠٢م، ٧٩.

١. قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[١].

المعنى اللغوي:

الرَّيب: "أن تتوهّم بالشيء أمرًا فينكشف عما تتوهمه"[٢]، وقد ورد نكرة؛ للإشعار بأن من حقّه . إن كان حاصلاً . أن يكون ضعيفًا لوضوح ما يدفعه ووجود ما يزيله"[٣].

يقول ابن منظور: "الرَّيب والريبةُ: الشَّكُّ، والظَّنَّةُ، والتُّهمةُ"، فمعناها يدور حول الشك المصاحب للتهمة[٤].

نزلنا: "إيثار التنزيل المنبئ عن التدريج على مطلق الإنزال لتذكير منشأ ارتيابهم وبناءِ التحدي عليه إرخاءً للعنان وتوسيعًا للميدان، فإنهم كانواْ اتخذواْ نزولَه منجمًا وسيلةً إلى إنكاره فجُعل ذلك من مبادئ الاعتراف به كأنه قيل: إن ارتبتم في شأن ما نزلناه على مهل وتدرجٍ فهاتواْ أنتم مثلَ نَوبةٍ فَذَّةٍ من نُوبَه ونَجْم فَرْدٍ من نجومه، فإنه أيسرُ عليكم من أن يُنزلَ جملةً

(١) البقرة: الآيتان (٢٣)، (٢٤).
(٢) المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ، ٣٦٨/١.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ، ٢٦٠/١.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر. بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ، ٤٤٢/١ (ر و ب).

واحدة، ويُتحدّى بالكلّ، وهذا كما ترى غايةُ ما يكون في التبكيت وإزالة العلل"(١).

فأتوأ: "الإتيان بالشيء" جَلْبُهُ، سواءُ كان بالاسترفَادِ من الغير أو بالاختراع من الجالبِ، وهذا توسعةُ عليهم في التحدِّي"(٢).

المعنى العام للآية:

"وهذا من الله . عز وجل . احتجاج لنبيه محمد ﷺ على مشركي قومه من العرب ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب وضُلالهم ... وأن ما جاء به من عندي . عَجزُ جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم، عن أن تأتوأ بسورة من مثله، وإذا عجزتم عن ذلك . وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذَّرابة(٣) . فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجزُ "(٤).

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿**فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾: "فأتوا أمر قصد به تعجيزهم باعتبار المأتي، وأن عجزهم إنما هو عن الإتيان بشيء

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٦٤/١.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤م، ١٩/١٢.

(٣) **الذَّرِبُ:** الحادُّ في كل شيء، ذَرِب الرجل: إذا فَصُح لسانُه بعد حَصرِهِ (لسان العرب: ٣٨٥/١ "ذ ر ب").

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ .٢٠٠٠م، ٣٧٣/١.

منه على قياس معناه: فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان والغريب وعلو الطبقة وحسن النظم"[1].

الشرح والتحـــليل:

"ويبدأ هذا التحدي بلفته لها قيمتها في هذا المجال ... يصف الرسول ﷺ بالعبودية لله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ ... ولهذا الوصف في هذا الموضع دلالات متنوعة متكاملة:

١. فهو تشريف للنبي ﷺ وتقريب بإضافة عبوديته لله. تعالى .، دلالة على أن مقام العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر ويدعى به كذلك.

٢. أما التحدي فمنظور فيه إلى مطلع السورة ... وهذا التحدي ظل قائمًا في حياة الرسول ﷺ وبعدها، وما يزال قائمًا إلى يومنا هذا، وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها"[2].

ذكر الشوكاني هذا المعنى، فقال: "وقوله: ﴿فَأْتُواْ﴾ الفاء جواب الشرط وهو أمر معناه التعجيز ... فتحداهم بأن يأتوا بسورة من سوره...﴿وَادْعُواْ﴾، أي: ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله إن كنتم صادقين فيما قلتم من أنكم تقدرون على المُعارضة، وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم ... ووجه الإعجاز في القرآن الكريم هو كونه في الرتبة العليّة من البلاغة الخارجة عن

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ٢٣٧/٢.

(٢) في ظلال القرآن، الشيخ سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ، ٤٨/١.

طَوْقِ البشر"[١]، فهو فوق قدرتهم وإمكاناتهم، أي: "ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله إن كنتم صادقين في قولكم من أنكم قادرين على المعارضة، وهذا تعجيز"[٢].

٢. قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣].

٣. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ *فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٤].

المعنى اللغوي:

الافتراء: من الفري وهو "قطع الجلد للخرز والإصلاح، والإفراء للإفساد والافتراء فيهما، وفي الإفساد أكثر؛ وكذلك استعمل في القرآن في الكذب والشرك والظلم"[٥].

المعنى العام للآيات:

"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كفاك حجةً على حقيقة ما أتيتهم به، ودلالة على صحة نبوتك هذا القرآن، من سائر الآيات غيره، إذ كانت

(١) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٤هـ، ٦٢/١، ٦٣.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ، ٢٦٨/١.
(٣) يونس: الآية (٣٨).
(٤) هود: الآيتان (١٣)، (١٤).
(٥) مفردات ألفاظ القرآن، ٦٣٤/١ (ف ر ي).

الآيات، إنما تكون لمن أُعَطيها دلالة على صدقه، لعجز جميع الخلق عن أن يأتواْ بمثلها، وهذا القرآن، جميع الخلق عَجَزَة عن أن يأتواْ بمثله..."[1].

الشرح والتحـــليل:

أول ما يلفت النظر- هنا . هو تصدُّر الآيتين الكريمتين بـ(أم) وهي للإضراب الانتقالي من النفي إلى الاستفهام الإنكاري التعجبي. والغرض منه إبطال دعواهم أن يكون هذا القرآن مفترًى من دون الله . جلا وعلا ..

و"أم" هذه هي التي تتقدر عند النحاة بـ(همزة الإنكار) و(بل)، وعليه يكون تقدير الكلام: بل، أيقولون افتراه بعد ما تبين لهم من الدلائل على صدقه وبراءته من الافتراء؟، وقيل: إنكار لقولهم واستبعاد، "فجاء هذا الكلام على كلام العرب قد علم تبارك وتعالى وذلك من قولهم، ولكن هذا على كلام العرب ليعرَّفواْ ضلالاتهم"[2].

(١) جامع البيان ٢٥٨/١٥، ٢٥٩.

(٢) الكتاب، سيبويه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ .١٩٨٨م، ١٧٣/٣.

ـ الفعل الإنجازي المتضمن في القول[١]:

قوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لمعناه؛ ولذلك استخدم القرآن الكريم لفظة (سورة) بالتنوين للتنكير[٢]، أي أتوا بسورة ما، كما تعبر عن معنى التبكيت والتحميل لهم، وكذلك يدعم الإنجاز باستخدام لفظ (من) التبعيضية الدالة على القلة، وهي مبالغة مناسبة لمقام التحدي، وتعجيز بلغاء العرب المرتابين فيه عن الإتيان بما يضاهيه"[٣]؛ لذا جاءت الآيتان معطيتا معنى

---

(١) لكل فعل كلامي .كما حدد أوستين . لابد أن يتضمن داخله ثلاثة أفعال جزئية، وهي:

. "**١. الفعل اللفظي (الفعل اللغوي أو فعل القول):** وهو يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح، ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي وله مرجع يحيل إليه، **٢. الفعل الإنجازي (الفعل المتضمن في القول):** وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي، **٣. الفعل التأثيري (الفعل الناتج عن القول):** ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع". (آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، د. محمود نحلة، ٤٦، ٤٧، وينظر: النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد، ط٢، ٢٠١٤هـ، ٢٨٥).

. **الفعل الإنجازي (الوظيفي) Actillo cutorie:** وهو عمل يمكن توضيحه من خلال قول أوستين "حينما نقول شيئًا فإننا في الحقيقة نقوم بفعل شيء"، ويكون فعل أمر، أو استفهام، أو طلب، أو تعجب، أو نداء، وجاء تصنيف أوستين على هذا النحو، من خلال ما لاحظه في القوة الغرضية لفعل الكلام التي تصاحب المعنى الصريح والحرفي الذي ينجزه هذا الفعل. (تجليات مفاهيم التداولية في التراث العربي، تفسير الرازي لسورة المؤمنون أنموذجًا، (رسالة ماجستير)، موسى جمال، الجزائر، ٢٠٠٩م، ٣٩).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٣).

(٣) الأفعال الكلامية في القرآن الكريم (سورة البقرة)، ١٨٠.

التعجيز بغرض إظهار عجز من يرى أن في وسعه أن يفعل أمرًا ليس بمقدوره أن يفعله.

كما أن العجز كفعل تأثيري حاصل لا محالة، فقد خاطبهم مجتمعين، وأردف تحديهم حينما طلب منهم دعوة شهدائهم لإعانتهم أو قضاء حاجاتهم، وهو ما يسميه (أوستن) "بمصاحبة المنطوق الخاصة بالمتكلم"(١). فالتداولية في الفعل الكلامي ملحوظة في الفعل الإنشائي وهو الأمر (فادعواْ) المراد به التعجيز وهو معنى خفي في غير ملفوظ.

ثم احتج . سبحانه . على صحة القرآن، وأنه ليس بمنقول، فقال تعالى: **﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾**(٢).

والفاء هنا للتعقيب، أي: إذا كان القرآن منقولاً كما يدعون، فيجب عليهم بأن يأتواْ بحديث مثله، إن كانوا صادقين.

وقال تعالى هنا: **﴿فَلْيَأْتُوا﴾**، بصيغة المضارع المسبوق بلام الأمر، ومن دون وساطة: **﴿قُلْ﴾** خلافًا للآيات السابقة إذ قال فيها: **﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾**، والسر في ذلك:

أولاً: أن التحدي بقوله تعالى: **﴿فَلْيَأْتُوا﴾** تحدٍّ غير مباشر يعمُّ كل من نسب إلى النبي ﷺ تقوُّلَ القرآن تارة، والافتراء على ربه . جل وعلا . تارة أخرى. أما التحدي بقوله تعالى: **﴿قُلْ فَأْتُواْ﴾** فهو تحدٍّ مباشر، ويخص كل من نسب إلى النبي ﷺ افتراء القرآن.

(١) الأفعال الكلامية في القرآن الكريم (سورة البقرة)، ١٨١، ٢١٤.
(٢) الطور: الآية (٣٤).

ثانيًا: أن التعبير بصيغة المضارع المسبوق بلام الأمر **﴿فَلْيَأْتُوا﴾** يفيد تجدد التحدي واستمراره دون انقطاع، بخلاف صيغة الأمر **﴿فَأْتُواْ﴾**، فإن التعبير بها يفيد احتمال وقوع الفعل مرة واحدة ووقوعه أكثر من ذلك(١).

وبالرجوع إلى بعض كتب التفسير ثبت أن "الأمر في قوله تعالى: **﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾** من باب (التعجيز) وإلقام الحجر كما في قوله تعالى: **﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾**(٢)، والفاء للجواب، وسببيَة الارتياب للأمر أو الإتيان بالمأموريه، لما أشير إليه من أنه عبارة عن جزمهم المذكور فإنه سبب للأول مطلقًا وللثاني على تقدير الصدق، كأنه قيل: إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلام البشر فأتواْ بمثله"(٣).

٤. قوله تعالى: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾**(٤).

المعنى العام الآية:

"قل يا محمد للذين قالوا لك: إنا نأتي بمثل هذا القرآن: لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، لا يأتون أبدًا بمثله ولو كان بعضهم لبعض عونًا وظهيرًا"(٥)، هذا التحدي زاد فيه الاجتماع من الثقلين، وصرف الهمم للتظاهر والتعاون والتطافر، فقال مؤكدًا باللام الموطئة للقسم لادعائهم

(١) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود، ٤٩.

(٢) البقرة: من الآية (٢٥٨).

(٣) إرشاد العقل السليم، ٦٤/١، وينظر: محاسن التأويل، ٢٦٨/١.

(٤) الإسراء: الآية ٨٨.

(٥) جامع البيان في تأويل القرآن، ٥٤٦/١٧، ٥٤٧.

أنهم لو شاؤواْ أتواْ بمثله ﴿**لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ**﴾... ﴿**لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ**﴾، وهنا أظهر في مقام الإضمار[١].

الشرح والتحليل:

افتتحت الآية بفعل الأمر (قل)، وأغلب الآيات القرآنية التي تفتتح بفعل الأمر (قُلْ) يراد بها التنبيه أو الاهتمام بما يقال، أما في هذه الآية المباركة، فإن فعل الأمر جاء للتنويه والاهتمام بمقام القرآن، "وافتتاحه بـ(قُلْ) للاهتمام به، وهذا تنويه بشرف القرآن فكان هذا التنويه امتنانًا على الذين آمنواْ به، وهم الذين كان لهم شفاءً ورحمةً، وتحديًا بالعجز عن الإتيان بمثله للذين أعرضواْ عنه، وهم الذين لا يزيدهم إلا خسارًا"[٢].

قال الخطابي: "إن قومًا ذهبواْ إلى أن العلة في إعجازه . أي القرآن الكريم . الصَّرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، ولم يرتض الخطابي ذلك، بل رد عليهم بقوله: "إن دلالة الآية تشهد بخلافه"[٣]، وهي قوله تعالى: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾.

كما قرر السيوطي بطلان المذهب، فقال: "فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سُلِبُوا القدرة، لم يبق لهم فائدةُ لاجتماعهم لمنزلته منزلةَ اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يُحْتَفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون مُعجِزًا وليس فيه صفة

(١) فتح القدير، ٣/٣٢٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٥/٢٠٣.

(٣) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م، ٢٣، ٢٤.

إعجاز؟ بل المعجز هو الله تعالى، حيثُ سَلَبَهم القدرةَ على الإتيان بمثله، وأيضًا فيلزمُ من القول بالصِّرفة زَوالُ الإعجاز بزوالِ زمان التحدي، وخُلُوُّ القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خَرْقُ لإجماعِ الأُمة أن معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن"(١).

. لمن وقع التحدي؟

قال الإمام الزركشي:"التحدي إنما وقع للإنس دون الجن؛ لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، وإنما ذُكِرُوا في قوله: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنّ﴾**، تعظيمًا لإعجازه؛ لأن الهيئة الاجتماعية لها من القوة ما ليس للأفراد، فإذا فرض اجتماع جميع الإنس والجن، وظَاهَر بعضُهُم بعضًا، وعَجَزوا عن المعارضة كان الفريقُ الواحد أعجزَ"(٢). ونقل هذا منّاع القطّان وارتضاه(٣)، وهذا الذي ذكره الزركشي وارتضاه نقله عنه السيوطي قائلاً: قال بعضهم ..."، وذكره(٤)، الألوسي وردّه(٥)، وجمهور العلماء على أن التحدي قد وقع للإنس والجن(٦)، وتخصيصهما بالذكر؛ لأن المنكر لكونه من عند الله . تعالى . منهما لا من

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ ١١٩٧٤م، ٧/٤، ٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ .١٩٥٧م، ١١١/٢.

(٣) مباحث في علوم القرآن، منّاع خليل القطّان، مؤسسة الرسالة، ط٢، ٢٥٩.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، ٢٢/٤.

(٥) روح المعاني، ١٦٦/١٥.

(٦) أعلام النبوة، الماوردي، دار ومكتبة الهلال . بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ، ٩١/١.

غيرهما والتحدي إنما كان معهما[١]، وقيل لأنه ﷺ كان مبعوثًا إلى الثقلين دون الملائكة[٢].

. الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

أرى أن القوة الإنجازية للفعل الكلامي (وهو الفعل الذي يتركب من ثلاثة أفعال سبق ذكرها في هامش (٢)، الصفحة ٣١) في هذه الآية هو الإخبار عن المعجزة التي نزل بها الرسول الكريم ﷺ وهي القرآن الكريم الذي أعجز أهل الفصاحة والبلاغة، أما القوة الإنجازية الملتزمة للفعل الكلامي في هذه الآية، فهي التحدي وتعجيز المنكرين لهذا القرآن بالأمر (قُلْ) وتتمثل قوته الإنجازية المباشرة في طلب الأداء، وهو أمر الله تعالى للكافرين والمشركين أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، هذا هو المعنى الحرفي المباشر، أما القوة الإنجازية غير المباشرة أو المعنى الضمني فهو التعجيز، والفعل التأثيري هاهنا يتمثل في كشف كذبهم وزيغهم وتوبيخهم وإقامة الحجة عليهم للعودة إلى الحق، وذكر الجن في الآية الكريمة هو زيادة ومبالغة في تعجيزهم؛ "لأنهم إذا عجزوا عن الإتيان بمثله ومعهم الجن القادرون على الأفعال المستغربة فهم عن الإتيان بمثله وحدهم أعجز"[٣]، فقوة المنطوق الإنجازية جزء مكمل لمعناه.

التعليق والاستنتاج:

بناءً على ما سبق من آيات يتضح الآتي:

(١) روح المعاني، ١٥٨/٨.
(٢) الإتقان، ٢٢/٤.
(٣) روح المعاني، ١٥٨/٨.

١. تتعالق هذه الآيات السابقة في إقامة وظيفة عميقة تشير إلى علاقة بين الله تعالى، والخطاب الإلهي، تتمثل هذه الوظيفة في بنيات متكافئة دلاليًا:

﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾[١]: هذه البنية تمثل وظيفة التنزيل من أعلى إلى أدنى، وتؤسس لواحدة من أهم القضايا في الخطاب القرآني، وهي مسألة توحيد الله، في مقابل هذه الوظيفة توجد وظيفة مهمة ذات علاقة بتكوين وظيفة التوحيد، وهي وظيفة التعدد في الألهة، قال ابن كثير: "لأن التحدي عامٌّ لهم كُلُّهم، مع أنهم أفصح الأُمم، وقد تحدّاهم بهذا في مكة والمدينة مرّات عديدة، مع شِدَّةِ عَداوتِهم له، وبُغْضِهم لِدينه، ومع هذا عَجَزُواْ عن ذلك"[٢].

٢. تتعالق هذه الآيات من وجهتين في التحليل اللساني؛ من وجهة البنية أو الشكل، ومن وجهة المعنى الذي يتمثل في وحدة الموضوع، فآيات التعجيز والتحدي السابقة لم تخرج عن بنية الموضوع في إثبات صدق الخطاب الإلهي، وكان ذلك مما يصح وقوعه في آية واحدة، إلا أن سرد الآليات يقدم فكرة التعجيز والتحدي بتكوينات مختلفة، يجري ذلك في مغزى يظهر عجزهم، ويظهر صدق نزول الوحي من الله. سبحانه وتعالى. إلى الرسول ﷺ.

---

(١) البقرة: من الآية (٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠ .١٩٩٩م، ١٩٩/١.

٣. التكرار اللفظي والدلالي[١]: حيث استعمل القرآن الكريم صيغًا بديلة متكافئة وظيفيا[٢]، من مثل: عشر سور، سورة، من مثله، كما نلحظ في الآيات تحولاً لفظيًا[٣] في التكرار الذي يقدم وظيفة عميقة في التحليل الدلالي، فعشر سور لا يمثل سورة، وإن كان الأمر في تركيب واحد، وفي مقصد واحد، إلا أن بناء المعنى يتصعد تبعًا لعلاقة المقصد باللفظ المستعمل، فالتعليق الإعجازي مستمر في إقامة حقيقة مطلقة حول الخطاب الإلهي في أصغر السور القرآنية حجمًا، لكن طلب الإتيان بسورة يختلف عن طلب الإتيان بعشر سور، حيث ينحوا السرد القرآني إلى تمكين البنية الإعجازية بإقامة التحدي بمستويات دلالية غير متوقعة[٤].

٤. الإحالة الدلالية[٥]: تتمثل في استعمال تكوينات دلالية متماثلة، من ذلك:

---

(١) لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، محمد خطابي، ٢٤، وينظر أيضًا: نحو النص (إطار نظري ودراسة تطبيقية)، عثمان أبو زيد، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م، ٢٨٦ وما بعدها.

(٢) مدخل إلى علم النص . مشكلات بناء النص . زتسيسلاف واورزنياك، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر، ط١، ٢٠٠٣م، ٧٥.

(٣) تكرار وظيفيًا، حيث يبقى المعنى دون اللفظ.

(٤) البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيمائي لتحليل النص، هنريش بليث، ترجمة وتحقيق: محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، بيروت . لبنان، ١٩٩١م، ٦٧ وما بعدها، ٨١ وما بعدها.

(٥) **الإحالة في علم الدلالة هي:** العلاقة بين الأسماء والأشياء، أو بين الضمائر والأشياء، وذكر جون لاينز المفهوم الدلالي للإحالة بقوله: "إن العلاقة القائمة بين الأسماء والمسميّات هي علاقة إحالة: فالأسماء تحيل على مسميّات"، (نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، ١١٦).

أ) اللفظ (افتراه).

ب) اللفظ المعقود عليه التحدي (سورة)، (عشر سور)، (حديث مثله)، وهذه تكوينات وظيفية في الإعجاز والتحدي تمثل عمقًا في المنحنى الدلالي؛ من جهة أن خطاب الإعجاز لم يستقر على تمثيل واحد في طلب الإتيان، فكان مرة بسورة، ومرة بعشر سور، ومرة بمثل القرآن.

ـ الحروف المقطعة في فواتح السور:

من روائع البيان القرآني المعجز (فواتح السور)، حيث كان افتتاح كل سورة قرآنية افتتاحًا مناسبًا لها، من حيث موضوعها وكلماتها، وحروفها، محققًا الإعجاز البياني فيها المؤدي إلى التعجيز.

قال الإمام السيوطي عن روعة فواتح السور ناقلاً عن أهل البيان أهمية حسن افتتاح الكلام: "وقال أهل البيان من البلاغةِ حُسْنُ الابتداء، وهو أن يتأَنقَ في أول الكلام؛ لأنَّهُ أوَّلُ ما يَقْرَعُ السُّمع، فإن كان مُحَررًا أقبل السامعُ على الكلام ووعاهُ، وإلا أعرضَ عنه، ولو كان الباقي في نهايةِ الحُسن فينبغي أن يؤتَى فيه بأعذبِ اللَّفظ وأجزَلِهِ وأرقِّهِ وأسلسِلِه، وأحسنِهِ نَظْمًا وسَبْكًا، وأصحِّه معنى وأوضَحِهِ، وأخلاهُ من التعقيد، وقد أَتتْ جميعُ فواتحِ السُّور على أحسَن الوجوهِ وأبْلَغها وأكملِها، كالتحميدَاتِ، وحروف الهجاء، والنداءِ، وغير ذلك"(١).

ومن التفصيل لهذه الفكرة الإشارة إلى مسألتين، هما:

. الأولى: صور افتتاح السور.

(١) الإتقان في علوم القرآن، ٣/٣٦٣.

- **الثانية:** الحروف المقطعة في فواتح السور.

وقد تكلم العلماء عن هاتين المسألتين، وبينواْ روعة البيان القرآني فيها، منهم: الإمام الزركشي(١)، والإمام السيوطي(٢)، ونوجزه فيما يأتي:

أولاً ـ صور افتتاح السور:

افتتاح السور القرآنية افتتاح رائع، يحقق الإعجاز البياني القرآني، وسور القرآن مئة وأربع عشرة سورة، وصور افتتاحها محصورة في عشر صور، منها: الحروف المقطعة: في تسع وعشرين سورة.

ثانيًا ـ الحروف المقطعة في فواتح السور:

افتتاح بعض السور بالحروف المقطعة مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ويطلق عليها (الحروف النورانية)، وقد اختلف العلماء والمفسرين والبيانيون في المراد بهذه الأحرف، ولهم في هذا أقوال عديدة، يعنينا ذكر القول الذي نراه راجحًا"(٣).

القول الراجح هو: أن الله تحدى الكافرين، وطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، فافتتح بعض السور بهذه الأحرف المقطعة من باب التحدي والتعجيز؛ لأنه يخبرهم بذلك أن القرآن مكون من هذه الحروف الهجائية، وهم عرب يتكلمون لغة عربية مكونة من هذه الأحرف الهجائية نفسها، فهذا القرآن في بيانه لم يخرج عن حروف وكلام لغتهم العربية، فإذا كان هذا القرآن كلام بشر فإنهم يستطيعون الإتيان بمثله، وإذا عجزواْ عن معارضته

(١) البرهان في علوم القرآن، ١/١٦٤.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، ٣/٣٦١.
(٣) ينظر الأقوال المختلفة في البرهان، الزركشي ١/١٧١.١٨٧.

ثبت أنه كلام الله . تعالى .، وكأنه . سبحانه وتعالى . يقول لهم من خلال هذه الأحرف: ها هي ذا الأحرف الهجائية نضعها بين أيديكم مفردة كل حرف على حدة: أ ، ل ، م، ن ، ص ، ك ، ه ، ي ... فخذوها وألفواْ منها كلامًا مثل هذا القرآن! فإن عجزتم عن ذلك فاعلموا أن القرآن كلام الله !!

قال الشيخ سيد قطب في توضيحه لهذا الرأي: "إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلَف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب، ولكنه . مع هذا . هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتواْ بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله، فلا يملكون لهذا التحدي جوابًا"(١).

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

إن إنجاز الأفعال الكلامية قد يكون بالمعنى الحرفي المصرح به في الجملة، كما قد يكون إنجازها ضمنيًا غير مباشر، فقد يؤدي المرء فعلاً كلاميًا بصورة غير مباشرة تسمى بالأفعال الكلامية غير المباشرة، وهناك أنواع أخرى من الحالات حيث يختلف معنى الجملة نسقيًا عن المعنى الذي يقصده المتكلم، وقد أسهمت الحروف المقطعة في القرآن الكريم في انسجام تراكيبه، وفي جعله خطابًا حواريًا مبنيًا على المساءلة، كما أسهم تنويع الحروف المقطعة في تنويع الدلالات، وهذا كله من أجل تحقيق الفعل التأثيري.

(١) في ظلال القرآن، ٣٨/١.

تعليق واستنتـــاج:

كما أن نظم القرآن الكريم معجز فبحرفه معجز، وكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية، وإنما خفيت على الناس؛ لأنها أسرار باطنية لا تدرج إلا بالفتح الرباني، فهي بمنزلة الألفاظ، والحروف المقطعة التي في أوائل السور، فإن لها أسرارًا عظيمة ومعاني كثيرة.

ثانيًا: ـ تعجيز من الله ـ عز وجل ـ لليهود:

قوله تعالى: **﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**(١).

المعنى العام للآية:

هذا خطاب الله ـ تعالى ـ يأمر فيه رسوله ﷺ ليوجهه إلى اليهود، كما أورده ابن كثير: "يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ثم ذكر الآية، أي: ادعُوا بالموت على أيِّ الفريقينِ أكذبَ"(٢)، كما أن هذه الآية ردًا على اليهود أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركهم فيها المسلمون، واللام في الناس للجنس، وربما للعهد وهذا أرجح(٣).

الشرح والتحليل:

يخبر المولى ـ عز وجل ـ في هذه الآية عن استمرار اليهود في إعراضهم عن الدعوة الإسلامية، وتتضمن الآية فعلاً كلاميًا يغلب عليه

(١) البقرة: الآية (٩٤).
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ، ٣٣١/١.
(٣) فتح القدير، ١٤٨/١.

الإخبار، وزيادة على الإخبار، فإن هناك: تبكيت وتعجيز، وهذا الفعل الكلامي يقدم صورة من طبيعة بني إسرائيل التي تأبى التغيير والتبديل.

لقد اختار السياق القرآني الفعل الكلامي، الذي يشكل البنية الحوارية الحجاجية في هذه الآية، "إن الوظيفة الإقناعية من وظائف البلاغة؛ لأن تأثيرها التداولي أقوى"(١).

ـ الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

في هذا الموقف الحواري استعمل القرآن الكريم معنى التعجيز والتحدي، وجعل للفعل الإنجازي موقفًا ملائمًا يقتضيه السياق، وهو تحقيق فعل متضمن في القول هو التكذيب وإبطال الدعوى بدخولهم الجنة من دون الناس **﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً...﴾**، وقدم خبر كان لغرض تداولي هو الاهتمام بأمر المتقدم أو إفادة الحصر لتقوية التأكيد، ثم انتقل إلى الأمر بالتمني حجة قاطعة **﴿فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**، ثم يختم هذه المحاجة بالجواب الحاسم، مستعملاً الإخبار في قوله تعالى: **﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾**(٢)، وغرضه: تأدية فعل إنجازي متضمن في القول، هو التحدي والتعجيز، وهي جملة اعتراضية غير داخلة تحت الأمر السابق، سيقت من أجل البيان الدال على كذبهم؛ لأنهم امتنعوا عن التمني، وقد ساهمت الجملة الاعتراضية بعقوبة كذبهم، وإظهاره، ونفي التمني عنهم "موجه إلى النبي ﷺ والمؤمنين، إعلامًا لهم لِيزدادُواْ يقينًا ولِيحْصُلَ منه تحدٍّ لليهود؛ إذ يسمعُونَهُ وَيَودُّونَ أن يخالِفُوهُ لِئلا ينهض حُجَّةً على صِدْقِ المُخْبِرِ

(١) استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظاهر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٤م، ٤٤٥.

(٢) البقرة: من الآية (٩٥).

بـه فيلـزَمهُم أن الـدار الآخـرةَ ليسـتْ لهُـم"[١]؛ وبـذلك يتحقـق للحجـة القرآنيـة غرضـها، وبالتـالي فـإن الحجـاج يـدعم القوة الإنجازيـة للفعـل المتضـمن فـي التعجيز، ومـا يحملـه مـن معنـى الـذم والتحـدي، ومـن ثـم إسـقاط ودحـض كـل مزاعم اليهود وذلك من أعظم الدلائل على صدق الرسول ﷺ، وهذا من قبيل الإعجاز النفسي في القرآن الكريم[٢].

قال الزمخشري: "وقوله: ﴿**وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا**﴾ من المعجزات؛ لأنه إخبار بالغيب، وكـان كمـا أخبـر بـه كقولـه "ولـن تفعلـوا" فـإن قلـت مـا أدراك أنهـم لـم يتمنـوا؟ قلـت: لأنهـم لـو تمنـواْ لنقـل ذلـك كمـا نقـل سـائر الحـوادث، فـإن قلـت التمنـي مـن أعمـال القلـوب وهـو سـر لا يطلـع عليـه أحـد، فمـن أيـن علمـت أنهـم لـم يتمنـواْ؟ قلـت: لـيس التمنـي مـن أعمـال القلـوب، إنمـا هـو قـول الإنسـان بلسـانه: ليـت لـيّ كـذا ...، ولـو كـان التمنـي بـالقلوب وتمنـواْ لقـالواْ: قـد تمنينـا المـوت فـي قلوبنـا، ولـم ينقـل أنهـم قـالواْ ذلـك"[٣]، بينمـا نقـل عـن الصـحابة قـول ذلك كقول عمار بن ياسر بصفين: "اليوم نلقي الأحبة محمدًا وحزبَه"[٤]؛ ذلك أن تمنـى المـوت "ليس من سماتهم ولا من ظواهرهم المألوفة، وتمنـى المـوت من شأن المقربين الأبرار؛ لأن من أيقن بالشهادة اشتاق إليها"[٥].

---

(١) التحرير والتنوير، ٦١٥/١.

(٢) **الإعجاز النفسي**: "عدم مقدرة الكافرين أن يأتواْ بكلام مثل القرآن في بلاغته وبيانه وفي تأثيره العظيم في نفوس قارئيه وسامعيه". (بحوث في الإعجاز والتفسير في رسائل النور، أحمد خالد شكري، مركز المعرفة، ١١١).

(٣) الكشاف، ١٦٧/١.

(٤) المعجم الأوسط، الطبراني، دار الحرمين، القاهرة، ٣٠١/٦ (٦٤٧١).

(٥) الجدول في إعراب القرآن، محمود بن عبدالرحيم صافي، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م، ٢٠٤/١.

التعليق والاستنتـــاج:

١. الجملة الخبرية في الآية المذكورة استخدمت (لن) للنفي، منحت هذا الخبر من القوة الإنجازية ما تبطل به إنكار المنكرين.

٢. الفعل الكلامي (فتمنوا) يحمل دلالة غير مباشرة، هي ذلك التعجيز والتحدي لأولئك اليهود، كما يحمل قوة إنجازية مستلزمة هي: التهديد وألزم على ذلك الموقف، وهذه القوة الإنجازية مدركة مقاميًا، والتي تستلزمها الجملة **﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾**، فقد توعدهم الله. سبحانه وتعالى. بفعل حاصل في المستقبل هو عدم التمني.

٣. جاء التعجيز في السياق، وسيلة لدعم القوة الإنجازية المتعلقة بتهديد بني إسرائيل، هذا الفعل الكلامي غير ظاهر في البنية اللغوية، وذلك ما دلت عليه قرائن ظاهرية، وأخرى ضمنية استدلالية.

ثالثًا : تعجيز من الله ـ عز وجل ـ للملائكة (إقامة الحجة على الملائكة) :

قال تعالى: **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**(١).

المعنى العام للآية:

لكي يقيم الله الحجة على الملائكة، ولا يدع لهم مجالاً للشك في صلاح هذا الخليفة، عَلَّم آدم الأسماء كلها.

"ذلك السر الإلهي العظيم الذي أودعه الله. سبحانه وتعالى. هذا الكائن البشري، وهو يسلمه مقاليد الخلافة، سر القدرة على الرمز بالأسماء

(١) البقرة: الآية (٣١).

للمسميات"[١]، ولولا هذا السر ما كان لسلالته أن تتفاهم وتتعامل بسهولة ويسر، فعلم آدم أسماء الأشياء كلها والظاهر كما يقول ابن عاشور: "والظاهر أن الأسماءَ التي عُلِّمها آدمُ هي ألفاظُ تدل على ذواتِ الأشياءِ التي يحتاجُ نوع الإنسان إلى التعبير عنها لحاجته إلى ندائها أو استحضارها، أو إفادة حُصُولِ بعضها مع بعض"[٢]، فمنح الله ـ تعالى ـ آدم القدرة على التعلم، وأقدره على إيجاد الأسماء للمسميات.

الشرح والتحليل:

هنا تقف الملائكة عاجزين منبهرة بفضل الله على آدم، ثم عرض الله هذه الأشياء على الملائكة ـ إقامة للحجة ـ إذ طلب منهم أن ينبئوه بأسماء المعروضات بفعل كلامي تمثل في الأمر، والغرض منه ليس الأمر الحقيقي، وإنما هو التعجيز والتحدي، وقوة الفعل وشدّته تكمن في المواجهة بالأمر (أنبئوني).

يقول الألوسي: "أنبئوني بأسماء هؤلاء تعجيز لهم وليس من التكليف بما لا يطاق"[٣]، وقد قدّم هنا جواب الشرط على الشرط المتمثل في قوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، والتقديم للأهمية؛ لأن الأمور بخواتيمها ونتائجها، لا ببدايتها ومقدماتها، فهاهو ذا سيدنا آدم يتحدى الملائكة بالعلم الذي علمه الله، ويستحق لذلك أن يكون خليفة الله في الأرض "والإنباءُ الإخبارُ بالنبأ، وهو الخبر ذو الفائدةِ العظيمةِ والأهميَّةِ بحيث يحرصُ السامِعون على اكتسابه؛ ولذلك تضمن معنى الإنباء الإعلام؛ لأن المُخْبَر به

(١) في ظلال القرآن، ٥٧/١.
(٢) التحرير والتنوير، ٤٠٩/١.
(٣) روح المعاني، ٢٢٧/١.

يُعدُّ مما يُعلَمُ، وقوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، إما أراد به إن كنتم صادقين في أنكم أفضل من هذا المخلوق إن كان قولهم: ونحن نسبح ....، تعريضًا بأنهم أحقَّاءُ بذلك، أو أراد إن كنتم صادقين في عدم جَدارةِ آدمَ بالخلافةِ كما دَلّ عليه قولُهم: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**﴾[1]...، وإذا انتفَى الإنباءُ انتفى كونُهُم صادقين في إنكارهم خلافةَ آدمَ، فإن كان محلُّ الصدق هو دعواهُم أنهم أجدَرُ فقد ثبتَ عَدمُهَا"[2].

ـ الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

تضمنت هذه الآية فعلاً كلاميًا توجيهيًا مباشرًا هو الأمر، تمثلت قوته الإنجازية الحرفية في طلب الأداء، أي طلب فعل شيء ما، وهو أمر الله تعالى لملائكته بأن يخبروه بالأسماء التي علمها لآدم، والدليل الإنجازي هو صيغة الأمر (أنبئوني)، أما القوة الإنجازية غير المباشرة المستلزمة[3] مقاميًا فهي (التعجيز)، إذ يقول الزمخشري: "وإنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الإنباء على سبيل التبكيت"[4]، والفعل التأثيري يتمثل في الرد على الملائكة ليعلموا الحكمة التي استخلف الله من أجلها آدم في الأرض، وليعلموا أن علم الله وسع كل شيء، كما أشارت الدراسات التداولية إلى دور الآمر في تنبيه المتلقي على خطورة ما سيأتي من أمور عليه أن يترقبها، ومن ذلك الدور

---

(١) البقرة: من الآية (٣٠).

(٢) التحرير والتنوير، ٤١٢/١، ٤١٣.

(٣) **الاستلزام الحواري**: "هي نظرية في إنتاج الخطاب من خلال التركيز على آليات الفعل الكلامي، تتحول من مرحلة الفعل اللغوي المباشر إلى مرحلة الفعل اللغوي غير المباشر، وما صاحب هذا التحول من تغيير في طبيعة التحاليل المقترحة لمقاربة الخطاب". (الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ٩٩، ١٠٠).

(٤) الكشاف، ٢٥٣/١.

الذي يقوم به الخطاب والأمر في الآية "بما أن النبأ "إنما يطلق على الخبر الخطير والأمر العظيم"[١].

ويرجع ذلك حسب تحليل (غرايس) إلى خرق قاعدة الكيف[٢]؛ لأن الله . سبحانه وتعالى . لا يريد أن يمتثل الملائكة لأوامره فهو يعلم أنهم عاجزين عن القيام بالفعل "أنبئوني أمر تعجيز بقرينة كَوْنِ المأمورِ يعلمُ أنّ الآَمِرَ عَالِمُ بذلك فليسَ هذا من التكليفِ بالمحالِ ... ثم إنّ ذلك المعنى المجازي يستلزمُ عِلمَ الآمرِ بعجزِ المأمورِ وذلك يستلزم عِلمَ الآمِرِ بالمأمُورِ به"[٣]، بل يرغب في إيصال معنى التعجيز، فالله . سبحانه وتعالى . حين رأى من الملائكة علامات رفض خلافة هذا المخلوق تحدّاهم بأن يخبروه بأسماء علّمها لسيدنا (آدم) ليثبت لهم أنه حقيق لهذه الخلافة وأنهم عاجزون عما يستطيع فعله[٤]:

الآية ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء**﴾ ← عدم الدلالة على القصد صراحة ← خرق قاعدة الكيف ← خروج الأمر إلى معنى التعجيز.

(١) روح المعاني، ٢٢٧/٣.

(٢) رأى غرايس أن العملية التخاطبية التي تقوم على التعاون الحواري بين المتخاطبين ترتبط بقواعد تخاطبية تضبط عملية الحوار من بين هذه القواعد: قاعدة الكيف ويقصد بها: منع ادعاء الكذب أو إثبات الباطل، وكذلك يطلب من المتكلم ألا يورد من العبارات سوى تلك التي وقف على دليل يثبت صدقها. (الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ٩٩، ١٠٠).

(٣) التحرير والتنوير ٤١٢/١.

(٤) جامع البيان، ٣٠/١، ٣١.

التعليق والاستنتـــاج:

١. كان التفاعل الحواري[١] تفاعلاً إيجابيًا أدى إلى فعل إنجازي متعلق بأفعال الكلام، وهو: الاعتراف بالعجز، وهذا من متضمنات القول في الفعل التداولي، وهو مبدأ من مبادئ التفكير التداولي[٢].

٢. الأمر وإن كان ظاهره ظاهر أمر، فغير أمر على الحقيقة، بل المراد به التقرير والتنبيه على مكان الحجّة فهو "تبكيت لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة، فإن التصرف والتدبير وإقامة المعدلة قبل تحقق المعرفة، والوقوف على مراتب الاستعدادات وقدر الحقوق محال وليس بتكليف ليكون من باب التكليف بالمحال، والإنباء: إخبار لما فيه إعلام؛ ولذلك يجري مجرى كل واحد منهما"[٣].

رابعًا ـ تعجيز بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأقوامهم:

توطئة:

اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ ورحمته بعباده أن يختار بمحض فضله وكرمه من يصطفيهم من خلقه، ممن ميزّهم بخصائص لا يشاركهم فيها غيرهم، رسلاً في كل أمة؛ ليبينوا للناس طرق الخير وسبل السعادة في

(١) التفاعلات الحوارية تُبْلِغ مقاصدها بمقتضى التعاون القائم بين أطراف الحوار، وهو ما يتطلب أن يكشف المتحاورون عن مقاصدهم، أو على الأقل التوجه العام لهذه المقاصد؛ وبذلك يفترض وجود تعاون بين أطراف الحوار على تحقيق المطلوب". (الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ٩٨).

(٢) التداولية عند العلماء العرب، ٣٠.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ، ٦٩/١.

الدارين، فيدعونهم إلى عبادة الله وحده، ويحذرونهم من عبادة غيره، وقد استخدم الرسل . عليهم السلام . أسلوب التعجيز في دعوتهم لأقوامهم، لما لهذا الأسلوب من نتائج طيبة وآثار إيجابية في الدعوة إلى الله تعالى، ومن الآيات الدالة على ذلك:

ـ تعجيز من موسى عليه السلام لقومه:

يقول الله . تعالى .: **﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾**(١).

المعنى العام للآية:

لم يرد استئذان السحرة لموسى عليه السلام في هذه السورة (الشعراء)؛ لأنها كانت معنية ببيان عناية موسى عليه السلام بأمر الرسالة، "ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل، وقد سوّغ لهم موسى ما تراغبوا فيه، ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلبها سحرٌ أبدًا"(٢)، كما كانت معنية ببلاغ موسى عليه السلام للرسالة وحرصه عليها، قال ابن عاشور: "وفي كلامِ موسى عليه السلام استِخْفَافُ بما سَيُلْقُونَه؛ لأنه عبَّر عنه بصيغة العموم، أي ما تستطيعون إلقاءَهُ"(٣).

الشرح والتحليل:

فطن موسى عليه السلام إلى خبث فرعون وهدفه، فلجأ إلى ما نعرفه اليوم في اللسانيات وتحليل الخطاب (بقوة التساند الحجاجي وسلمية التدرج

(١) الشعراء: الآية (٤٣).
(٢) الكشاف، ٢/١٤٠.
(٣) التحرير والتنوير، ١٩/١٢٧.

الإقناعي)[1]، فأسلوب موسى عليه السلام يتميز بوسيلة هي التدرج في إقامة الدليل والحجة، وعدم إدراج كل البراهين والحجج دفعة واحدة، بل الاقتصار على الضروري منها حسبما يتطلبه الموقف، وتقتضيه الحاجة إلى البيان والإقناع أو الرد، ومن ثم التأثير على الحاضرين الذي يمثل الهدف العام للتعجيز.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

الفعل الإنجازي يؤدي على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر، فهذه الآية تنجز فعلين كلاميين فعل لغوي[2] رئيس (مباشر)، وفعل لغوي ثانوي (غير مباشر)، ويمكن للفعل الثانوي أن يرد داخل بنية التدخل[3] قبل الأفعال الرئيسة أو بعدها أو فيما بينها.

(١) قَعَّد لمسألة الحجاج كل من (جون أوستين)، و(جون سيرل) ضمن نظرية الأفعال الكلامية، وما الفعل الحجاجي إلا نوع من الأفعال الإنجازية التي يحققها الفعل الملفوظ في بُعده الغرضي. (التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بو مزبر، الدار العربية للعلوم، ط١، ٢٠٠٧م، ٢٤).

(٢) لكل فعل لغوي (فعل القول) ثلاث خصائص، هي: (فعل دال: لفظي)، و(فعل إنجازي: وظيفي)، و(فعل تأثيري)، ويمكن أن تستعمل الأفعال اللغوية بشكل عام للدلالة على: (القسم، والطلب، والتحية، والإنذار، والدَّعوة، والشُّكر...). (نظرية أفعال الكلام .كيف ننجز الأشياء بالكلام .، أوستين، ١٧).

(٣) **التدخل هو**: الحوارية الذاتية الكبرى داخل بنية التبادل، وهذه الوحدة تتميز بالوظيفتين: الافتتاحية: تستدعي ردًا، والتعقيبية: تتعلق برد فعل اتجاه تدخل ما أو جواب عن سؤال ما. (ينظر: خصائص البنية الحوارية في محاورة موسى عليه السلام لفرعون وأسسها الحجاجية، د. بو شعيب بن مسعود راغين، جامعة طيبة، المدينة المنورة، ١٦٧).

"إن القول ليس هو دائمًا القول تصريحًا، فالنشاط الخطابي شاملاً باستمرار بين المقول وغير المقول، وليس أقل فوائد التداولية إعطاء الجمل التضمينية أحقية كاملة، ابتداءً من المقولة التقليدية عن الحذف في التركيب، هذه الفائدة من جهة أخرى طبيعية بالنسبة لمتضمنات القول إذا رأينا أن التداولية تضع ثقلها في الاستراتيجيات غير المباشرة للمتلفظ، وفي عمل تأويل الملفوظات عند المتلفظ المشارك"(١).

هذه الوظيفة التفاعلية المسندة إلى الفعل (ألقواْ) حجة تعجيزية تمنح حضورًا لفهم الآليات المتحكمة في انتظامه الخطابي اللساني والتداولي، ويمكن تلخيص هذه المفاهيم وربطها بتشكلاتها النسقية التي تقدم الحديث عنها كالتالي:

التبادل > = التدخل > الأفعال اللغوية (الإنجاز الخطابي)

وكل تدخل له وظيفتان:

افتتاحية: تستدعي الرد.

تعقيبية: تستدعي رد الفعل تجاه تدخل ما ذي وظيفة افتتاحية، أو جواب عن سؤال ما.

التعليــق والاستنتاج:

تصور الآية حالة من العناد الجامح كالذي يؤْثِر الهلاك على الإذعان للحق حتى ولو كان حقًا "إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق، وأن يهديها إليه دون أن تجد في هذا غضاضة، ولكنها

(١) تداولية الخطاب السردي: دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، محمود طلحة، جامعة الأغواط، عالم الكتب الحديث، أربد . الأردن، ٢٠١٢م، ١٤٦.

حين تفسد بالكبرياء الجامحة تأخذها العزة بالإثم حتى لتؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق"[١].

خامسًا ـ تعجيز من بعض الأقوام لأنبيائهم ـ عليهم السلام ـ:

توطئة:

التعجيز لم ينطلق إلا في إطار الجو الذي يملك المشركون أمر التحرك فيه، وهو الجانب البياني، أما الجانبين العلمي والغيبي فهما من الجوانب التي تنهض دليلاً على صدق القرآن الكريم، وليس في إطار التعجيز؛ لأن التعجيز لا يعني شيئًا في المجال الذي لا يملكون أمر المعرفة له، فقد يكون لهم أن يعتذرواْ بعدم الاختصاص، فيقولون: ليس لنا القدرة على علم الغيب، فهي سالبة بانتفاء الموضوع، بل يطارحهم القرآن حوارًا هادئًا ومنطقيًا يقول فيه: إذا آمنتم بالغيبيات القرآنية آمنوا إذًا بصدق قائلها[٢].

ومن هنا لا يمكن أن تكون قضايا العلم والغيب مجالاً للإعجاز وإن كانت دليلاً على صدق رسالة الرسول ﷺ، فلابد أن يكون الإعجاز منسجمًا مع قدرات المخاطب وظروفه الزمانية والمكانية وأجواء النزول وإمكاناته العلمية[٣].

---

(١) في ظلال القرآن، ١٥٠٥/٣.

(٢) تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، ط٢، ١٩٩٨م، ١٨٤/١.

(٣) المصدر السابق، ١٨٦/١.

إذًا، فالإعجاز البياني هو وحده الحاضر على ساحة تعجيز الكفار والمشركين، أو تعجيزهم للأنبياء، ومن الآيات الدالة على ذلك:

ـ تعجيز من الكفار للنبي ﷺ:

١. قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**(١).

المعنى العام للآية:

نقل الألوسي عن أهل العلم "أن قريشًا قال بعضها لبعض أكرم الله تعالى محمدًا ﷺ من بيننا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ...إلخ)، وهو أبلغ في الجحود من القول الأول؛ لأنهم عدُّواْ حقيته محالاً(٢)، فتحدَّواْ بدعائهم هذا قدرة الله عليهم في أن يأتيهم بعذاب، كما كان الشأن مع الأقوام الذين من قبلهم ودلالة الدعاء تحيل على استهزائهم وتعجيزهم للفعل الإلهي.

الشرح والتحليل:

كلامُ الكفار في هذه الآية المباركة "جار مجرى القسم ...، فمعنى كلامهم: إنَّ هذا القرآنَ ليس حقًا من عندِك فإن كان حقًا فأَصِبْنا بالعذاب، وهذا يقتضي أنهم قد جزمواْ بأنه ليس بحقٍ وليس الشرطُ على ظاهرِه حتى يُفيدَ تردُّدَهُم في كونه حقًا، ولكنه كنايةٌ عن اليمين، وقد كانواْ لِجَهلِهِم وضَلاَلهم يحسَبُون أن الله يتصدَّى لمخاطرتِهِم؛ فإذا سألُوهُ أن يُمطر عليهم حجارة إنْ كان القرآنُ حقًّاً منّه أمطَرَ عليهم الحجارةَ وأرادواْ أن يُظهِرواْ لقومِهِم صحَّةَ جَزْمِهم بعدم حقِّيَّة القرآنِ فأعلنُوا الدُّعاءَ على أنفسهم بأن يصيبَهم

(١) الأنفال: ٣٢.

(٢) روح المعاني، ١٨٦/٥، ١٨٧.

عذابٌ عاجلٌ إنْ كان القرآنُ حقًّاً من الله، لِيسَتدِلواْ بعدم نزول العذاب"[١]، "وهذا أسلوب من الجحود بليغ"[٢]، فيطلبون منه ما لا يمكن حدوثه، لكن الرسول بشر، أو لكون ما يطلبونه يخالف سمة صاحب الرسالة.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

نلمح في النص المبارك إشارات عجيبة تدل على ورود الفعل الكلامي (أمطر)، (آتنا)، بصيغة الأمر، وذكر ابن فارس أنه لا يقال: (أُمْطِرَ) إلا في العذاب[٣]، والإيتاء: الإعطاء[٤]. فالسياق الذي وردت فيه الآية المباركة دال على أن فعل الأمر (أمطر . آت) ليس في معناهما الحقيقي، وإنما يراد بهما معنى غير مباشر وهو الدعاء، والسخرة، والاستهزاء، والاستخفاف، بالإضافة إلى التعجيز.

وتتجلى القوة الإنجازية للفعل الكلامي في:

- (إذ) التي تفيد الظرفية، وفيها دلالة على القوة.
- واستعمال لفظ (اللهم) وهو مركب من لفظ الجلالة (الله) والميم التي هي عوض عن حرف النداء (يا)؛ إذ لا يجمع بين (يا) والألف واللام إلا مع لفظ الجلالة خاصة، وهو دليل على عظمة وتفخيم اسمه تعالى.

(١) الكشاف، ٢/٢١٦.
(٢) التحرير والتنوير ٩/٣٣١، ٣٣٢.
(٣) مقاييس اللغة ١، ٥/٣٣٢.
(٤) المصدر السابق، ١/٥١.

- "تعليق الشرط بحرف (إنْ)؛ لأن الأصل فيها عدم اليقينِ بوقوع الشرط، فهم غيرُ جازمينَ بأنَّ القرآن حقٌّ ومُنَزَّلٌ من الله، بل هم موقنون بأنَّهُ غيرُ حقٍّ، واليقينُ بأنهُ غير حقٍّ أخصُّ من عدم اليقين بأنَّهُ حقٌّ.
- استعمال ضمير الفصل (هو) فهو يقتضِي تقوِّي الخبر.
- تعريف المسند (الحق) بلام الجنس يقتضي الحصرَ؛ وذلك تعبيرهم يَحْكُون به أقوال القرآنِ المُنَوِّهة بصدقه، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**﴾[1] ...، وهذا الدعاءُ كنايةُ منهم عن كونِ القرآن ليس كما يُوصف به، للَّتلازمِ بين الدعاءِ على أنفسِهم وبين الجَزْمِ بانتفَاءِ ما جعلُوه سبب الدعاء، بحَسْبِ عُرْفِ كلامهِم واعتقادهم"[2].
- استعمال شبه الجملة الظرفية (من عندِك) الواقعة في محل الحال من الباري . سبحانه وتعالى .؛ إذ هم يطعنون ويجحدون كونه مَنزَّلاً من عند الله تعالى.
- استعمال فعل الأمر (أَمْطِرْ) الذي يدل على قوة شديدة متأتية من استعماله بصورة غير مباشرة بالدعاء على أنفسهم.
- العطف الذي يعطي قوة للجملة العربية وزيادة في التأكيد (آتنا على أمطر)، والمراد بهذا الدعاء هنا التهكم والسخرية وإظهار اليقين والجزم التام على كونه باطلاً[3].

---

(١) آل عمران: من الآية (٦٢).

(٢) التحرير والتنوير، ٣٣٢/٩، ٣٣٣.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ، ٢٩، ٥٧/٣، ٥٨، ٨٩/٣/٣٠، ٢٩، ٣٩٥/٣.

ومما يُزاد على ما تقدم يمكن تجلية القوة الإنجازية للفعل الكلامي المُؤدِّي الأمريّة غير المباشرة في ضوء ما يأتي:

المحتوى اللفظي(١): إذ قالوا اللهم، والجملة الشرطية (إن كان) وضمير الفصل (هو)، والألف واللام الجنسية (الحق) وشبه الجملة (من عندك)، الفاء (أمطر، آئتنا)، واو العطف، عذاب، أليم.

والمحتوى القَضَوِيّ(٢): إنكار الكافرين وجحودهم بأن ما جاء به النبي ﷺ منزلاً من الله تعالى، والدعاء على أنفسهم بالإتيان بالعذاب الأليم، إن كان ذلك حقًا.

والمحتوى الإنجازي والتأثيري: الخوف والحذر والفزع والتهديد للكافرين، والسكينة والاطمئنان للمؤمنين بأن ما نزل على النبي ﷺ حقًا مصدقًا، وكذلك الخزي والعار للكافرين في الآخرة.

---

(١) **المحتوى اللفظي (الفعل النُطقي)**: وهو يشمل الجوانب الصوتية والنحوية والمعجمية، وهو يضم كل من الفعل الصوتي والتركيبي عند أوستين.

(٢) **المحتوى القَضَوِي (الفعل القضوي)**: نسبة إلى القضية التي تقام على المتحدث عنه أو المرجع، والمتحدث به أو الخبر، وتتمثل في معاني مفردات الجملة مضمومًا بعضها ببعض، وتقابل الفعل الدلالي عند أوستين، وتنقسم إلى قسمين، هما: **أ) الفعل الإحالي**: يسهم في ربط الصلة بين طرفي الخطاب (المتكلم والسامع)، **ب) الفعل الحملي**: وهو الإسناد أو الحمل إلى الموضوع المحال عليه. والفعلان معًا . الإحالي والحملي . يشكلان معًا قضية واحدة وهي المحتوى المشترك بينهما. (اللسانيات الوظيفية . مدخل نظري، أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٠م، ٢٦).

التعـــليق والاستنتاج:

طالعنا النص القرآني الكريم بصورة تعجيزية تجسدت وفق نمطين من أحداث التعجيز:

الـنمط الأول: تحـدى المعانـدين للإبـلاغ الرسـالي خـلال محاكـاتهم للنصوص الإلهية في قوله تعالى: **﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾**(١).

النمط الثاني: تحدى المعاندين لأنفسهم لتحقيق هلاكهم إن كان هناك امتدادًا حقيقيًا لما أتاهم خلال قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**، ولاسيما أن (المطر) لا يلفظ به القرآن الكريم "إلا في معنى العذاب"(٢).

ويبدو أن محور التعجيز المتمثل في صورة الحجر الساقط من السماء على رؤوسهم والمساق ليس على وجه الحقيقة، بل الخيال والتمثيل لغرض وعظ المعاندين من أنّ الله تبارك وتعالى لديه قدرة على الإطاحة بالمعاندين وتدميرهم بصورة أشد وأفضح حتى من القذف بالحجر؛ وبهذا يتحقق الإنجاز على وفق أداء تقابلي من نمط من الأحداث البعيدة غير المتحققة، نمط له سمات تحدي المعاندين للإبلاغ الإلهي وظهر ذلك في: **﴿فَأَمْطِرْ﴾**، و**﴿أَوِ ائْتِنَا﴾**، إذ تبين منه "إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسّجَّيل"(٣)، وكل تلك الأحداث مساقة على وجه التمثيل المتخيل إلا أحداث الرد الإلهي

(١) الأنفال: الآية (٣١).
(٢) الكشاف ٢/٢١٧.
(٣) المصدر السابق، ٢/٢١٦.

جمعت بين سمة المثل المقدس والحقيقة المساقة على سبيل وعظ المعاندين بالابتعاد عن التحدي بفعل فرط أنفتهم واستناكفهم أن يغلبواْ[١].

٢. ومن ذلك قوله تعالى: **﴿قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**[٢].

المعنى العام للآية:

قال الإمام الزمخشري: "غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين، فقالواْ: ائت بقرآن آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك أو بَدِّلْهُ بأَن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها"[٣].

الشرح والتحليل:

خاطب الكفار رسول الله ﷺ بفعل الأمر (ائت) والغرض من الأمر التعجيز، "وكان سؤالهم لذلك على وجه التعنت والتحكم إذ لم يجدواْ سببًا آخر يتعلقون به"[٤]، وفي اختيارهم فعل الإتيان تناقض بين غرضهم وهو تعجيز رسول الله ﷺ وبين شعورهم بسهولة القرآن وأريحيته وسلاسة ألفاظه ومعانيه،

(١) السابق، الصفحة نفسها.

(٢) يونس: من الآية (١٥).

(٣) الكشاف، ٣٣٤/٢.

(٤) أحكام القرآن، الجصاص، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٥هـ ، ٣٧٤/٤.

فمن المقرر أن الإتيان "مجيء بسهولة ويتصل بالسهولة معنى الاستجابة والمطاوعة والمواتاة"(١).

وهكذا يظهر تعنت الكافرين مع رسول الله ﷺ ومحاولة تعجيزه والاستهزاء به، "وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد، إنما يصدر عن عبث وهزل وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله ...، وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله كانواْ يحسبون المسألة مسألة مهارة، ويأخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية ..."(٢).

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

الفعل (فأت) قوته الإنجازية كامنة فيه، تضافرت عوامل لغوية أخرى لتزيده قوة أخرى؛ لتفصح الآيات عن انطباع نفسي خبيث عند هؤلاء الجاحدين وحقد متجذر في قلوبهم على الله ورسوله وقرآنه، ومن ذلك:

وضع المظهر موضع المضمر: كان مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال مثلاً: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ... لكنه عبر بالاسم الموصول: ﴿قَالَ الَّذِينَ﴾ ليشير إلى أبرز صفاتهم وعلة إنكارهم وهي تتمثل في جحودهم لقاء الله حيث يظهر "وحي الكلمة وعملهُا بما يثيره لفظها من شئون في النفس لا يستطيعها الضمير العائد عليها، فالضمير لا يعمل في العقول عمل الإفصاح والتكثيف"(٣).

---

(١) الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٨هـ .١٩٩٨م، ١٢.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/١٧٧١.

(٣) خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٥، ١٤٢١هـ .٢٠٠٠م، ١٤٧، ٢٤٨.

التعليق والاستنتاج:

امتازت الآية القرآنية ببعض الصفات المميزة، منها: البناء اللغوي: جاء التعجيز مبنيًا بناءً استدلاليًا يتم فيه اللجوء إلى الحجة والاستدلال والمنطق والعقل معتمدًا على الأبنية والوسائل اللغوية، فقد وظف الخطاب القرآني وسيلة لغوية لتحقيق الإمتاع، وهي: وضع المظهر موضع المضمر.

ـ تعجيز من قوم صالح عليه السلام لصالح عليه السلام:

قوله تعالى: **﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**(١).

المعنى العام للآية:

"فعقرت ثمود الناقة التي جعلها الله لهم آية وعتوا عن أمر بهم، يقول: تكبرواْ وتجبرواْ عن اتباع الله، واستعلوا عن الحق"(٢).

الشرح والتحليل:

ورد التعبير القرآني على سبيل التعجيز، فكان الجدل بين النبي صالح عليه السلام والكفار من قومه معطيًا لدلالة التعجيز، فبدأ بقولهم: **﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**، "مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم الفاسد"(٣). ولعل التعبير قدّم جواب الشرط **﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾** مبالغة منهم في تعجيزه عن القيام بأي عمل، وفي قوله تعالى: **﴿بِمَا تَعِدُنَا﴾** حذف

(١) الأعراف: الآية (٧٧).
(٢) جامع البيان، ٥٤٣/١٢.
(٣) روح المعاني، ٤٠٣/٤.

تقديره: بما تعدنا "من العذاب وأطلق للعلم به"[١]، ثم جاء قوله: ﴿إِن﴾ الشرطية المشكوك في حصول ما بعدها، وقوله: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، أي: "فإن كونك من جملتهم يستدعي صدق ما تقول من الوعد والوعيد"[٢].

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

لعل قوة الفعل الإنجازي في هذه الآية ﴿ائْتِنَا﴾ كان له كبير الأثر في ذهن المتلقي، حيث استعملت (الواو) في: (وعتواْ ... وقالوا) لوصل وربط أفعال الكلام المختلفة من الرفض والتحدِّي. ومنه تتضح الطبيعة الإنجازية لهذه الآية، أي: الإهانة والتحقير للمأمورين، وذلك عندما يكون المخاطَب قليل الشأن في نفس الآمر، مع عدم المبالاة به؛ لذا لا يحمل على ظاهره؛ لأنه يخالف ما في نفس الآمر بالفعل، فالفعل ﴿ائْتِنَا﴾ المنبئ عن غطرسة الضّالين وتعنتهم طلباً من النبي صالح عليه السلام أن يأتي ما يوافق هواهم ويلائم غرضهم "ولا يخفى على القارئ أن هذا محض الاستهزاء والسّخرية منهم"[٣]. فالقوة الإنجازية للفعل ﴿ائْتِنَا﴾ هي التعجيز، فهو قول يستدعي عملاً.

التعليق والاستنتاج:

في الآية إشارة إلى:

١. طبيعة الأفعال الكلامية وتراتيبُها، انطلاقًا من إنجازيتها المخصوصة وفق الشروط الدلالية والشروط التداولية، باعتبار أن كل فعل كلامي

(١) روح المعاني، ٤٠٣/٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٢٤٣/٣، ٢٤٤، وينظر: روح المعاني، ٤٠٣/٤.

(٣) قطوف دانية في علوم البلاغة، فلاح حسن محمد الجبّوري، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ١٩٧١م، ٣١، ٣٢.

في الخطاب اللغوي المضبوط يهيئ وجود شرط الفعل الكلامي التالي له انطلاقًا من الحال الذي تعبر عنه من جهة، ومن الفرض الكلي لها من جهة أخرى.

٢. أن السياق سياق تهديد وتحدٍّ بدلالة **﴿فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾**، حيث كان السياق اللفظي يوحي بذلك علنًا، وأنه يُعدُّ قرينة كاشفة لمعنى **﴿ائْتِنَا﴾**؛ لأن هذا المعنى ينسجم كليًا مع الدلالة العامة للسياق والتي تمثلت في المواجهة والتحدّي والتعجيز معًا.

ـ تعجيز من بني إسرائيل لموسى عليه السلام:

١. قال تعالى: **﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوْاْ﴾**(١).

٢. وقال . عز شأنه .: **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾**(٢).

المعنى العام للآيات:

في سورتي الأعراف وطه، استأذن السحرة موسى عليه السلام في أيهما الذي يبدأ، ولم يذكر الاستئذان في سورة الشعراء، بل اقتصر على ذكر قول موسى للسحرة بالإلقاء، وسبب ورود ذكر الاستئذان في الأعراف وطه، هو ما اختصت به سورة الأعراف من اقتصاص الخبر، وهي بذلك تسجل العظة والعبرة من إيراد القصة بالتفصيل. أما سورة طه فكانت تلحظ لطف الله بموسى ومن هذا اللطف ما جرى بينه وبين السحرة فبدأت السورة خبره مع

(١) الأعراف: الآية (١١٥)، ومن الآية (١١٦).
(٢) طه: الآية (٦٥)، ومن الآية (٦٦).

السحرة من أوله، "تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتخاصموا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع، وقولهم: ﴿**وَإِمَّا أَن تَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ**﴾، فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله، من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل وتعريف الخبر، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه، ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلبها سحرٌ أبدًا"(١).

الشرح والتحليل:

"ابتدأ السَحَرةُ موسى بالتخيير في التقدُّم، إظْهارًا لثقتِهِم بمقدَرتهم وأنهم الغالبُون، سواء ابتدأ موسى بالأعمال أو كانوا هم المُبتدئين، ووجهُ دَلالة التخيير على ذلك أنَّ التقدَّم في التَخْيلاتِ والشَّعْوذَة أنجَحُ ولا لتَخْيلاتِ للبادِئ؛ لأنَّ بديهَتهَا تمضي في النُّفوسِ، وتستقِرُّ فيها، فتكونُ النفوس أَشدَّ تأثرًا بها من تأثُّرها بما يأتي بعدها، ولعلَّهم في ذلك أرادوا أن يَسْبُرُوا مِقدَار ثِقةِ موسى بمعرفته مما يبدُوا منه من استواءِ الأمرين عنَدهُ، أو من الحرص على أن يكون هو المقَدَّمَ، فإنَّ لاستضعاف النفس تأثيرًا عظيمًا في استرهابها وإبطالِ حيلَتها... ولذلك كان في جواب موسى عليه السلام إياهم بقوله: (ألقوا) استخفَافُ بأمرِهم إذ مكَّنهمْ من مبادَاةِ إظهار تخييلاتِهِم وسحرهم؛ لأن الله قَوَّى نَفْسَ موسى بذلك الجواب لتكون غلَبتُهُ عليهم بعد أن كانوا هُمُ المبتدئينَ أوقعَ حجَّةٍ وأقطعَ مَعْذرةٍ، ...؛ ولأنَّ في تقديمهِ إيَّاهُمْ إبلاغًا في إقامةِ الحُجَّةِ عليهم"(٢).

---

(١) الكشاف ١٤٠/٢، وينظر: فتح القدير، ٢٩٠/٢.

(٢) التحرير والتنوير، ٤٧/٩، ٤٨.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

دَلَّ التعبير القرآني على دلالة التعجيز، فالأمر لا يراد به على حقيقته، وإنما المراد منه التعجيز، وقد أورد ابن الجوزي: "قوله تعالى ﴿**بَلْ أَلْقُوا**﴾ قال ابن الأنباري: دخلت (بل) لمعنى جحد في الآية الأولى؛ لأن الآية الأولى إذا تؤملت وجدت مشتملة على إما أن تلقي وإما أن لا تلقي"(١).

قال ابن الجزي قوله تعالى: "﴿**إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ**﴾ انظر كيف عبر عن إلقاء موسى بالفعل، وعن إلقاء أنفسهم بالجملة الإسمية؟ إشارة إلى أنهم أهل الإلقاء المتمكنون فيه"(٢).

التعليق والاستنتاج:

١. تنوعت الأفعال الكلامية الإنجازية في الآيتين السابقتين، وتعددت صيغها وطرقها، وخرجت من المعنى المباشر إلى معان إنجازية غير مباشرة يفسرها المقام الذي وردت فيه، وهو غرض التعجيز.

٢. كان النص الحواري في بنية كبرى من الأفعال الكلامية، تؤدي فعلاً إنجازيًا معينًا، وتتضمن هذه البنية أفعالاً كلامية متنوعة، غلبت فيها القوة الإنجازية غير المباشرة على القوة الإنجازية الصريحة.

(١) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين الجوزي، المكتب الإسلامي، ٣٠١/٥.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم، دار أم القرى، مكة المكرمة، (د.ط)، ٧٥/٢.

المبحث الثاني

الأثر التداولي لأفعال الكلام بصيغ مخصوصة للأمر

أولاً ـ الأمر بصيغة أسماء الأفعال:

توطئــة:

بعد عرض آيات صيغة الأمر الصريح، ها هي ذا صورة أخرى ووجه آخر للأمر ورد عن الأصوليين والنحاة الأوائل، وهي لون من ألوان الكلام عند علماء العربية، أدت وظيفتها من حيث الشكل والمضمون، وعملت على تقوية المعنى وإثرائه، فالقسم الأكبر من أسماء الأفعال جاء للدلالة على الأمر؛ ولعلّ هذا عائد إلى المقام الذي يقتضيه فعل الأمر، والأحوال التي تستدعي المبالغة والاختصار في الطلب وهو "ما ناب عن الفعل معنى واستعمالاً ولم يتأثر بالعوامل ولم يكن فضله"(١)، وقيل أسماء الأفعال هي: "ألفاظ تقوم مقام الأفعال في الدلالة على معناها وفي عملها"(٢)، أي هي صيغ مخصوصة تقوم مقام الفعل في الدلالة والوظيفة، وهي مبنية دائمًا، فلا تتأثر بالعوامل الداخلة على الفعل، ولا تقبل علاماته، ولا تعرب إعرابه، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: اسم الفعل الماضي، واسم الفعل المضارع، واسم فعل الأمر(٣)، ومن هذا الأخير في آيات التعجيز:

---

(١) صور الأمر في العربية بين التنظير والاستعمال، سعود بن غازي أبو تاكي، دار غريب، ط١، ٢٠٠٥م، ١٥٧.

(٢) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار التراث، ط٢٠، ١٤٠٠هـ.١٩٨٠م، ٣٠٢/٣.

(٣) صور الأمر في العربية، ١٥٧.

١. قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[١].

المعنى اللغوي:

(هاتوا) اسم لفعل الأمر بمعنى (أعطين) أو ما في معناه فهو غير منصرف، وفيه قال الزمخشري: ﴿**هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ**﴾ هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت و(هات) صوت بمنزلة هاء بمعنى (أحضر)"[٢].

المعنى العام للآية:

يرى الطبري أن ظاهر الآية هو "ظاهر دعاء القائلين . دعوة اليهود والنصارى إلى إحضار حجة تثبت إدعاءهم وهو ﴿**لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى**﴾ إلى إحضار حجة على دعواهم على ما ادعواْ من ذلك، فإنه بمعنى تكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم؛ لأنهم لم يكونواْ قادرين على إحضار برهان على دعواهم تلك أبدًا"[٣]، ولكن المعنى الضمني والمقصود (التعجيز) الخاضع لسلطة السياق بعيدًا تمامًا عن الصورة الشكلية.

(١) البقرة: الآية (١١١).
(٢) الكشاف، ١٧٨/١.
(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، ٥١٠/٢.

٢. قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾[١]،

المعنى العام للآية:

"يقول تعالى ذكره: أتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة تنفع وتضر، وتخلَق وتحيي وتميت، قل يا محمد لهم: هاتواْ برهانكم، يعني حجتكم يقول: هاتوا إن كنتم تزعمون أنكم محقون في قيلكم ذلك حجة ودليلاً على صدقكم"[٢].

٣. قال تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣].

المعنى العام للآية:

يقول الآلوسي: "وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أمر له ﷺ بتبكيتهم إثر تبكيت أي هاتوا برهانًا عقليًا أو نقليًا يدل على أن معه . عز وجل . إلهًا، وقيل: أي هاتوا برهانًا على أن غيره . تعالى . يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله . عز وجل . وتعقب بأن المشركين لا يدعون ذلك صريحًا ولا يلتزمون كونه من لوازم الألوهية، وإن كان منها في الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له، وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إبهام أن لهم برهانًا وأنى لهم ذلك؟ وقيل: إن الإضافة لزيادة التبكيت كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تعدونه أنتم أيها الخصوم برهانًا

(١) الأنبياء: الآية (٢٤).
(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، ٤٢٦/١٨.
(٣) النمل: الآية (٦٤).

يدل على ذلك وإن لم نعده نحن ولا أحد من ذوي العقول كذلك، ومع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أي في تلك الدعوى، واستدل به على أن الدعوى لا تقبل ما لم تنور بالبرهان"(١).

الشرح والتحليل:

في هذه الآيات أكثر من فعل كلامي تأتي متتابعة حسب تنوع المقامات، وكان "الإخبار في هذا عن أهل الكتاب"(٢)، فمقام الاستفهام في البداية مقتضيًا لإيراد الخبر لنقل معلومة، وإنجاز فعل كلامي مباشر هو الإخبار عن جانب من أحوال المشركين، وحكاية شيء من مزاعمهم، وإدعاءاتهم وأمنياتهم، ويتضمن الاستفهام فعلاً كلاميًا متضمنًا في القول وهو الإدعاء، هذا الفعل من مزاعم المشركين، وهذا الإدعاء لا يقوم على بينة ويفتقر إلى دليل. والجملة الاعتراضية "قل هاتوا برهانكم"، "لا تكون إلا بين كلامين لقائل واحد"(٣)، وهي ذات وظيفة تداولية وذات مقاصد وفوائد الاعتراض "تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام"(٤).

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

القصد هو إبطال دعوى المشركين السابقة، واقتضى كل من الإدعاء والاعتراض فعلاً كلاميًا آخر هو التكذيب ولإبطال هذه الدعوى جاءت الجملة الأمرية متكونة من اسم فعل أمر (هات) وفاعل متصل ببنيته (واو

(١) روح المعاني ٢١٩/١٠.

(٢) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ .١٩٨٨م، ١٩٤/١.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ، ٢٤٧/١.

(٤) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت . لبنان، ٢٢٢/١.

الجماعة)، وهو المأمور، وفي الأمر دلالة التعجيز؛ لأن (هات) أتت للأمر مبالغة في الطلب، والجملة الأمرية المكونة من فعل الأمر والفاعل (هاتواْ) تؤكد وجوب القيام بالفعل، وهذا أمر صريح في طلب البرهان على صحة الدعوى، فقد نفى أن يكون لهم برهان عليه، والغرض هو إبطال الدعوى و"أمر بأن يُجابُواْ بهذا؛ ولذلك فَصَلَهُ لأَنَّهُ في سياق المحاورة"[1]، ويتضمن الأمر فعلاً كلاميًا غير مباشر وهو التعجيز، وهو فعل مستلزم مقاميًا، وذلك لتخلف عنصر الإرادة لتخلف الإمكان. ففي دلالة التعجيز يتخلف الإمكان في نفس الأمر، ومن ثم يكون القيام بالفعل غير ممكن عند الآمر والمأمور... أما في دلالة التحدي فيكون تخلف الإمكان من وجهة نظر الآمر فحسب، بينما بزعم المأمور وهم المشركون يزعمون أن لهم قدرة عليه قولاً أو فعلاً بأن يسلك سلوك من يعتقد ذلك، كما في قوله تعالى: **﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾**.

وهكذا يراد بالأمر التعجيز والتحدي لإبطال دعوى المشركين، ويقتضي التعجيز فعلاً كلاميًا غير ظاهر هو التكذيب، وهذا الفعل الكلامي مترتب على الذي قبله، ويراد بالتكذيب معنى الاستبعاد.

وحسب تحليل (غرايس) يرجع السبب في هذه الآية إلى مبدأ (خرق قاعدة الكم)[2]، فقد احتوت الآية على بعض المعلومات التي أدت إلى خروج

---

(١) التحرير والتنوير، ١/٦٧٤.

(٢) العملية التخاطبية التي يقوم بها المتخاطبون تستند إلى مبادئ، وتخضع لقواعد حوارية من بين هذه القواعد كما حددها غرايس:
قاعدة الكم، وهي: تتفرع إلى قاعدتين أساسيتين، هما:
أ) لتكن إفادتُك للمخاطب على قدر حاجته.
ب) لا تجعل إفادتك تتجاوز الحد المطلوب.
(الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ٩٩، ١٠٠).

الأمر إلى معنى التعجيز، وتتمثل هذه القرينة اللغوية في قوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، حيث جاءت (إن) "المفيدة للشك في صدقِهم مع القَطْعِ بعدم الصِّدق لاستدراجِهم حتى يعلموا أنهم غيرُ صادقين حين يعجِزُون عن البرهان؛ لأنَّ كلَّ اعتقادٍ لا يُقيمُ معتقَدِهِ دليلَ اعتقادِهِ فهو اعتِقاد كاذبُ؛ لأنه لو كان له دليلُ لاستطاعَ التعبير عنه"(١).

ويمكن تلخيص ما سبق في الآتي:

الآية ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ ← إضافة معلومات ← خرق قاعدة الكم ← خروج الأمر إلى معنى التعجيز.

التعليق والاستنتـــاج:

اشتملت هذه الآيات السابقة على صيغة من صيغ الأمر (اسم الفعل الأمر) يطلب بها على وجه التكليف والإلزام حصول شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب، وبالتأمل في صيغتها رُؤِى طالب الفعل فيها أعظم وأعلى ممن طُلب الفعل منه، وهذا هو الأمر الحقيقي.

وعليه يمكن القول إن في استخدام الفعل (هاتواْ) توجيهًا تداوليًا من معنى الإنشاء إلى معنى التعجيز.

ثانيًا ـ الفعل المضارع المقرون بلام الأمر بصيغة (لِتَفْعَلْ):

توطئة:

ها هي ذا صورة أخرى تبرز بجلاء سعة اللغة، واستيعابها للمعاني المختلفة باختلاف التعابير "ولاقتصار فعل الأمر على مقام المخاطب، احتيج

(١) التحرير والتنوير، ١/٦٧٤.

إلى صيغة أخرى يتوصل بها إلى إفادة معنى الأمر، في مقام الغيبة والتكلم، فكانت صيغة المضارع المقترن بلام الطلب صالحة لأن تستعمل مع الغائب"[١].

ويتم الأمر في هذا الجانب باللام، وهي التي تسمى بـ(لام) الأمر، أو بـ(لام الطلب)[٢]، وفي صيغة (لتفعل)؛ لأن هذه اللام "جازمة للفعل المستقبل للمأمور الغائب"[٣]، و"لكل من كان غير مخاطب ...، ولو كانت للمخاطب لكان جيدًا على الأصل"[٤]، والفرق بين بناء (افعل) وبناء (ليفعل) يكمن في: أن البناء الأول ليلقي بمادة الفعل مباشرة للمخاطب أمره إي إيقاع الفعل، أما البناء الثاني، (لتفعل) أو (ليفعل) فإن دلالة التجدد والحدوث يكون شيئًا فشيئًا، أي التجزئة ما تزال كامنة في البناء، فإذا ما دلّ على التلطف في الأمر، فإن في بناء (يفعل) ما يوحي بالتجزئة، وحدوث الحدث شيئًا فشيئًا، والأمر بهذا البناء أقرب إلى التلطف عن الأمر التام القاطع الذي يلقي دفعة واحدة مباشرة، وأما أن يدل بناء (لتفعل) على التشدد والقوة في الأمر ولام الطلب تدل على طلب الفعل على سبيل الاستعلاء فإن (اللام) تحمل الدلالة على التوكيد، فيظهر التوكيد والشدة في الأمر بسببها[٥].

---

(١) من نحو المباني إلى نحو المعاني (بحث في الجملة وأركانها)، محمد طاهر الحمصي، الناشر: دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م، ٢٧٩.

(٢) شرح شافية ابن الحاجب، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ١٣٩٥هـ .١٩٧٥م، ٢٦٩/٢، وشرح شذور الذهب، ابن هشام، الشركة المتحدة، سوريا، ٨١/١.

(٣) اللامات، الزجاجي، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ .١٩٨٥م، ٩٢/١.

(٤) المقتضب، المبرد، عالم الكتب، بيروت، ٤٤/٢، ٤٥.

(٥) قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، سناء حميد البياتي، دار وائل، عمان . الأردن، ط١، ٢٠٠٣م، ٣٠٢.

وقد يخرج الأمر بها إلى دلالة التعجيز تفهم من خلال السياق، ومن الآيات الدالة على ذلك:

قوله تعالى: **﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾**(١).

المعنى العام للآية:

"قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا فيمده ويمهله العمر والتمتع به، وإنما أخرجه على لفظ الأمر إيذانًا بأن إمهاله مما ينبغي أن يفعله استدراجًا وقطعًا لمعاذيره كقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾**(٢)،(٣).

الشرح والتحليل:

الناظر إلى هذه الآية قد لا يتبادر إلى ذهنه هذا المقصد؛ ذلك أن اللغة تشتمل على عدة كلمات، لا تقتصر دلالتها على معناها المتبادر إلى الذهن، وإنما تتجاوز ذلك المعنى(٤)، وهذا من بديع مقاصد القرآن في أساليب خطاباته، فأسلوب القرآن الكريم "يظهر بعض وحدات الكلام وعناصره بما

(١) مريم: الآية (٧٥).

(٢) آل عمران: من الآية (١٧٨).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ١٨/٤.

(٤) المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧م، ٤٨.

يحمل القارئ على الانتباه إليها، وهذه الوحدات أو العناصر لها دلالات تميزية خاصة تجعل الانتباه إليها ضرورة والغفلة عنها تشويه للكلام"[١].

يقول الشوكاني: "هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه. سبحانه. للعُصَاة، وأن ذلك كائن لا محالة لتنقطعَ معاذيرُ أهلِ الضَّلالِ، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾"[٢]،[٣].

قال الزجاج: "هذا لفظ أمر في معنى الخبر، وتأويله أن الله. عز وجل. جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها ويمده فيها كما قال. عز وجل. ﴿**مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾[٤]، إلا أن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن لفظ الأمر يريد به المتكلم نفسه إلزامًا، كأنه يقول أفعل ذلك وأمر نفسي به"[٥]، فالأمر كما هو واضح هنا ليس حقيقيًا، بل هو مجازي أفاد معنى الخبر، فأعطى معنى ثانيًا، وهو: التعجيز.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

أسلوب الفعل الأمر (فليمدد) يظهر البعد التداولي؛ إذ هناك قصد غير مباشر في هذه الآية، وهذا القصد يكشفه المتلقي بإعمال الفكر، تستدعي إثارة العاطفة وذلك وفق القرائن والسياقات التي يُنتج فيها النص، وهذا الأمر

(١) الأسلوبية والأسلوب، عبدالسلام المسدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط٣، ٨٣.
(٢) فاطر: من الآية (٣٧).
(٣) فتح القدير، ٣/٤١٠.
(٤) الأعراف: الآية (١٨٦).
(٥) معاني القرآن وإعرابه، ٣/٢٤٣، وينظر: فتح القدير، ٣/٤١٠.

يلوح لنا مقصد غير ظاهر أو غير مباشر في قوله: (فليمدد) القصد منه التعجيز، جاء اللفظ بصيغة لام الأمر إيذانًا بوجوب ذلك، ويحمل معنى الخبر؛ لأن الرحمن لا يأمر نفسه(١).

تعليق واستنتـــاج:

الملاحظ في هذه الآية الكريمة أن الله . تعالى . يقول لبنيه ﷺ قل لهم يا محمد ... إلخ. إذن القائل هو النبي ﷺ فالأمر من الله لكنه على لسان النبي ﷺ وكأن الله يأمر نفسه بأن يمد لهم، وهذا مبالغة في تأكيد الإمهال لهم في الدنيا، يقول الزمخشري: "فأخرج على لفظ الأمر إيذانًا بوجوب ذلك، وأنه مفعول لا محالة، كالمأمور به الممثل، لتقطع معاذير الضال..."(٢)، ويقول ابن عطية: "لام أمر دخلت في معنى الخبر ليكون أوكد وأقوى وهذا موجود في كلام العرب وفصاحتها"(٣).

ثالثًا ـ الأمر المستفاد من معنى اللفظ والجملة: (الجملة الخبرية الدالة عـلى الطلب):

توطئة:

خاض علماؤنا الأوائل كثيرًا في مسألة تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء، من أمثال: (السكاكي)، و(التفتازاني)، و(القزويني)، و(الجرجاني)، و(أبي العبَّاس اللغوي)، و(السبكي)، كما قسموا الإنشاء قسمين: طلبي، وغير

(١) اللام في القرآن الكريم . معانيها وعملها، أحمد إسماعيل الوحيدي، دار البيارق، عمان . الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ .١٩٩٩م، ١٩٧.

(٢) الكشاف، ٣٧/٣.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ .٢٠٠١م، ٢٩/٤.

طلبي، ويُعدّ الأمر من الأساليب الإنشائية الطلبية التي تتردد على الألسن كثيرًا بصور مختلفة، غير أن البحث التداولي أكد مجيء الأمر خبرًا، ونشمّ عبق الفكرة في قول الخطيب القزويني: "ثم الخبر يقع موقع الإنشاء، إما للتفاؤل، أو لإظهار الحرص في وقوعه، والدعاء بصيغة الماضي من البليغ يحتمل الوجهين، أو للاحتراز عن صورة الأمر، كقول العبد للمولى إذا حَوَّل عنه وجهه: ينظر المولى إليّ ساعة، أو لحمل المخاطَب على المطلوب، بأن يكون المخاطب ممن لا يجيب أن يكذَب الطَّالب أو لنحو ذلك"(١).

إذًا نستشف من هذا القول تفطن الرّعيل الأول من علمائنا، إلى إمكانية إنشاء أفعال من خلال الجملة الخبرية، بعدما أكدّ المهتمون بشؤون اللغة إنجاز الأفعال بأقوال إنشائية، تستفاد من السياقات المختلفة، تناولها أسلافنا باسم أغراض الكلام، في حين سمّاها المعاصرون بمتضمنات القول.

وإذ أبحث في أسلوب الأمر القرآني لآيات التعجيز، ألفيت عدد من الآيات في مختلف السور، تبرز ورود الأمر على شاكلة الخبر الحامل على إنجاز فعل ما، ومن آيات الذكر الحكيم الدالة على الأمر المتخذة شكل الجملة الخبرية:

١. قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**(٢).

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م، ١٠٥.
(٢) البقرة: الآيتان (٥٥)، (٥٦).

المعنى اللغوي:

جهرة: "جَهِر يقال لظهور الشيء بإفراطٍ، أما بحاسة البصر فنحو رأيتُه جِهارًا ومنه جَهَر البئر واجْتَهَرها إذا أظهر ماءها، وإمَّا بحاسة السمع نحو قوله تعالى: **﴿إِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾**(١)(٢).

المعنى العام للآية:

"القائلون هم أسلافُ المخاطَبِين؛ وذلك أنهم قالوا لموسى عليه السلام: لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهْرَةً، والظاهرُ أن هذا القولَ وقع منهم بعدَ العفوِ عن عبادتهمُ العجل"(٣)، "وإن السائلين هم السّبعُونَ الذين اختارهُم موسى للميقَات، وهُمُ المُعَبَّرُ عنهم في التَّوراةِ بالكَهَنَة وبشُيُوخِ بني إسرائيل"(٤)، "ومعنى **﴿لن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾**، يَحْتَمِلُ أنَّهُم توقَّعوا الكفرَ إنْ لم يَرُواْ الله تعالى، أي؛ أنهُمْ يرتَدُّون في المستقبلِ عن إيمانهم الذي اتَّصَفواْ به من قَبلُ، ويَحْتَمل أنهم أرادوُاْ الإيمانَ الكامِلَ الذي دليلُهُ المشاَهَدةُ؛ لأن **﴿لَن﴾** لنفي المُسْتقبل"(٥).

(١) طه: الآية (٧).
(٢) المفردات في غريب القرآن، ٢٠٩/١ (ج هـ ر).
(٣) التحرير والتنوير ٥٠٥/١، ٥٠٦.
(٤) المصدر نفسه ٥٠٦/١.
(٥) التحرير والتنوير، ٥٠٦/١.

الشرح والتحليل:

قال سيبويه: "لا لنفي يفعل، ولن لنفي سيفعل"(١)، وهذا التصرف الذي جاء من بني إسرائيل يدل على قلة اكتراثهم بما أوتوا من النّعم، وقلة اعتبارهم بما شاهدوا من المعجزات، حتى أرادوا رؤية الله جهرةً وعيانًا، وهدّدوا موسى عليه السلام إن لم يرهم الله بالردّة والعصيان "والجَهْرَة بمعنى: الظهور الواضح، وانتصب (جهرة) على المفعول المطلق لبيان نوع فعل (ترى)؛ لأن من الرؤية ما يكون لمحةً أو مع سَائرٍ شَفَّافٍ فلا تكُونُ واضحة"(٢)، و(جَهْرةً) أفصح لفظًا لخفّته؛ ولذلك لم يقل (عيانًا)؛ لأن العين أدخل في الحلق وأثقل من الجيم، وإيقاع الجيم المشربة والهاء والراء حَسَنُ على السّمع، والقرآن الكريم قمّة في الفصاحة والبيان(٣).

يقول ابن كثير: "طلب الرؤية ليس لذاته، ولم يكونوا صادقين فيه، وإنما هو من باب العناد والجدل، والتجرؤ على الله عز وجل"(٤).

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

فعل القول (نرى) يتضمن معنى الأمر أو الطلب من المشركين، والغرض التداولي منه هو (التعجيز)، إن إخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، معنى ذلك:

(١) الكتاب، ١٤/١.
(٢) التحرير والتنوير، ٥٠٧/١.
(٣) المصدر نفسه ٥٠٧/١ (بتصرف).
(٤) تفسير القرآن العظيم، ٥١٨/٣.

أن هذا التركيب لهو أوضح مثال على أن شكل الصيغة التي أتي عليها غير كاف لإدراك المقصود، فقد جاء بصيغة الماضي لحمل المخاطب على هذا الفعل كأنه أصبح واقعًا (كما ذكر أوستين)، أو يمكن القول بأنه هنا جاء بلفظ الخبر لكنه إنشاء عرفًا، ولعل قرينة الصيغة التي أتي عليها التركيب لها دور كبير في بيان مقصودية الأمر منه.

وملفوظ (نرى) يتضمن فعلاً إنجازيًا قوته الإنجازية كامنة فيه والذي يدل عليه سياق الكلام ومَا يستوجبه من الإلزام فالغرض التداولي هنا هو التعجيز.

التعليق والاستنتـــاج:

فعلان كلاميّان يستفادان من الأمر في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾**، تنبئ الآية بفعل كلامي ذي قوة إنجازية يعبر عنها الفعل (نرى)، فجاء الأمر هنا بلفظ (نرى) وهو فعل ماض يجعل من الجملة خبرية في ظاهرها، أمرية طلبية في مضمونها، وهو من الأوامر المدرجة في المواقف الحوارية، ضمن القصص القرآني.

٢. قوله تعالى: **﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾**[1].

(١) الأنعام: الآية (٣٧).

المعنى اللغوي:

"لولا: حرف تحضيض بمعنى (هَلَّا)، والتحضيض هنا لقطع الخصم وتعجيزه"(١).

"النُزُلُ لغة: هو الذي يُقَدَّمُ للنَّازِل تَكْرمة له قبل حضُورِ الضِّيافةِ"(٢)، فجاءت الآية واستعملت بقصد مضاد لمعناها تمامًا.

المعنى العام للآية:

تضمنت الآية بحسب النزول طلب المشركين من النبي ﷺ أن يأتي بالمعجزات الحسية المشاهدة، وكان هذا ـ كما قال الشيخ ابن عاشور ـ تعنتًا منهم بعد ظهور البراهين وإقامة الحجة بالقرآن الذين عجزواْ أن يأتواْ بسورة مثله؛ لذلك "أمر الله رسوله ﷺ أن يُجيبهم بما يُعْلَم منه أن الله لو شاء لأنزل آية على وَفْق مقترَحِهم تقوم عليهم بها الحجة في تصديق الرسول، ولكن الله لم يُرِدْ ذلك لحكمةٍ يعلمُهَا فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: إن الله قادِرُ على أن ينزِّل آية وهم لا ينكرون أن الله قادر؛ ولذلك سألواْ الآية"(٣).

الشرح والتحليل:

هذا القول منهم وبين أيديهم أفضل الآيات (القرآن الكريم) الذي كان يتنزل عليهم سورة سورة، وآية آية، يتلى عليهم حينًا بعد حين، تعين أن الآية الأولى التي كانوا يقترحونها بقولهم: **﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾**، ولم يقولوا: من ربنا، أو من الله، ونحوهما أن تكون إزراء بأمره وتأكيدًا في

(١) التحرير والتنوير، ٢٠٩/٧.
(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢٣٢/٢.
(٣) التحرير والتنوير، ٢١٠/٧.

تعجيزه، أي لو كان ما يدعيه ويدعواْ إليه حقًا فليغير له ربه الذي يدعواْ إليه ولينصره وليتنزل عليه آية تدل على أحقية دعواه"(١).

فالجهل بالمقام الألوهي هو الذي بعثهم إلى اقتراح الآية بداعي التعجيز.. وذكر لفظ الجلالة (الله)؛ للإشارة إلى أنهم لا يوجهون الطلب إلى النبي ﷺ وإنما يوجهونه إلى الله. تعالى .؛ لأنه إذا كان رسولاً من عنده فليجب له هذا المطلب الذي نتمناه ونكون من بعده مؤمنين، فهم جعلواْ إيمانهم موقوفًا على أن تنزل آية من السماء على سبيل "التَعَنُّتِ واللَّجاجِ مثل إنزالِ الملائكةِ وإسقاط السماء كسفًا وسائر ما حكَاهُ عن الكافِرين"(٢).

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

فعل القول (نزل) يتضمن معنى الأمر أو الطلب من المشركين، والغرض التداولي منه هو التعجيز، "إن استعمال نزّل قد يكون للتدرج والتكثير، وقد يكون للاهتمام والمبالغة، فالتنزيل قد يستعمل فيما هو أهم وأبلغ من الإنزال، وأكثر تأثيرًا ولدواعي الحاجة وطول الزمن"(٣). وبهذا يتحقق التعجيز بأداء زجري بفعل انعدام إيمانهم، ولو تحقق لهم كل حدث سيق على وجه التحدي بتقابل متجسد في:

﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ← **﴿قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً﴾** بفعل انعدام تحقق الإدراك الحسي لديهم في قوله تعالى: **﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** .

(١) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٧هـ، ٣٦٥/١.

(٢) مفاتيح الغيب، ٥٢٢/١٢.

(٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمّار، الأردن، ٦٤.

"إن المقدِّماتِ والنَّتيجة تُدلُّ عَقْلاً على المطلُوبِ المستَدلِّ عليه، وإنَّ النتيجَةَ هي عَيْنُ المطلُوبِ في الواقِع، وإن كانت غيَرهُ في الاعتِبَار؛ فلذلك نجِدُ القرآنَ يذكُرُ الحُجَجُ على عظيمِ قدرَةِ الله على خَلْقِ الأمورِ العظيمةِ"(١).

التعليق والاستنتاج:

أ) أعطت الآية الكريمة معنى التعجيز، وجاء التعجيز مبدوءًا بـ(لو) متلوة بفعل، وجيء بـ(لو): "للبيان تحقيق ما يفيده الكلام السابق من الحكم على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر تحققه مع ما عداه من الأحوال بطريق الأولوية، أي: أتفعل فيّ ذلك حال عدم مجيء بشيء مبين وحال مجيء به"(٢)، والتعجيز فيهما للاستقبال لا للمضي.

ب) جاء الفعل (نُزِّل) مبنيًا للمجهول جاريًا مع سياق الآيات متوافقًا على انتظام السياقات، وجاء الفعل (نُزل) بصيغة الماضي دون المضارع (ينزل) مثلاً على الرغم من عدم اكتمال الشريعة وقتها؛ لأن "المراد المنزل كله، وإنما عبر عنه بلفظ المضي وإن كان بعضه مترقبًا، تغليبًا للموجود على ما لم يوجد، كما يُغَلَّب المتكلم على المخاطب، والمخاطب على الغائب، فيقال أنا وأنت فعلنا، كأن كله قد نزل وانتهى لنزوله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى**﴾(٣)، ولم يسمعوا

(١) التحرير والتنوير، ٢١٠/٧.
(٢) روح المعاني، ٧٤/١٠.
(٣) الأحقاف: من الآية (٣٠).

جميع الكتاب، ولا كان كله نزولا"[١]، وعبروا بالإنزال دون الإعطاء؛ لأن مرادهم التعجيز "[٢].

٣. قال تعالى: **﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾**[٣].

المعنى العام للآية:

"يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك القائلين لك هذه الأقوال، تنزيهًا لله عما يصفونه به، وتعظيمًا له من أن يؤتي به وملائكته، أن يكون لي سبيل إلى شيء مما تسألوا فيه **﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾**، هل أنا إلا عبدٌ من عبيده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم"[٤].

(١) الكشاف، ٤٢/١.
(٢) روح المعاني، ٢٢١/٦.
(٣) الإسراء: الآيات من (٩٠) إلى (٩٣).
(٤) جامع البيان، ٥٤٤/١٧.

الشرح والتحـــليل:

يجسد الحوار في هذه الآيات مدى عناد ومكابرة المشركين من قريش، فهم يطلبون من الرسول ﷺ أشياء لا يقبلها العقل مقابل إيمانهم بدعوة الدين الإسلامي، وما هذه الطلبات إلا تعجيز للرسول ﷺ، أو أنهم كانواْ يريدون من الرسول ﷺ أن يكون مختلفًا من البشر، ويتمتع بقدرات غير طبيعية تختلف عن تلك التي يتمتع بها سائر الناس، لكن "الأمر الطبيعي أن يكون بشرًا، لتحقيق الانسجام بين الرسول ﷺ وأتباعه، ولتكون العلاقة بينهما علاقة طبيعية؛ لأن مهمته ليست البلاغ فحسب، بل التجسيد الحي للفكرة في عمله"(١)، وعليه لابد أن يكون الرسول ﷺ إنسانًا طبيعيًا مسؤوليته "هي إثبات ارتباطه بالخالق عن طريق المعجزة، وعندما يأتي بالقدر الكافي من المعجزات، فليست عليه أية مسؤولية أخرى"(٢).

لقد بدأ المشركون الحوار مع الرسول ﷺ بنفي الإيمان نفيًا لا رجعة فيه، إلا بعد تنفيذ مطالبهم التي طلبوها، وكان الهدف من هذه الطلبات هو الاستمرار في دينهم، وعدم ترك عبادة الأوثان والأصنام التي كان يدعوا إلى تركها الرسول ﷺ ، وكأنهم أعطواْ علة وسبب عدم إيمانهم"، فإن النفوس أبعَثُ على قبول الأحكامِ المُعلَّلةِ من غيرها"(٣).

(١) الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الملاك للنشر، لبنان، ط٥، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م، ١٢٥.

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيرازي، ١٤٢٦هـ ، ٤٠٩/٧.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، ٨٧٣/٢.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

استخدم في هذه الآية أساليب فعلية متنوعة، منها:

١. طالعنا النص القرآني بمحور الفعل الكلامي في قوله تعالى: **﴿وقالوا﴾**، بوصفه إيمانًا مشروطًا يحقق أفعال مساقة على وجه الطلب في أحداث نسقية متعاقبة على وفق الآتي:

﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ...﴾.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ ...﴾.

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ...﴾.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ...﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ...﴾.

"كانوا يقترحون الآيات فكان يَودُّ أن يجابواْ إليها لتمادي حرصه على إيمانهم"(١).

وعلى أساس توجيه دلالة المضارع للإفادة بالأمر "جعل كل من (أوستين)، و(سيرل) المقاصد مركزًا في التفريق بين المعنى التعبيري معنى الكلمات في الملفوظ، وبين قوة الأفعال الغرضيَّة، أي النتيجة التي يقصد المتكلم نقلها [...]، وقد ركّز فلاسفة اللغة على الطرق التي يبحث عنها المتكلم لنقل مقاصده إلى المتلقِّي، وذلك بكل الوسائل التعبيريَّة والغرضيَّة، ولكن بنفس القدر من الأهمية، يجب أن ندرك أن

(١) الكشاف ١٩/٢، ٢٠.

فهم مقاصد الآخرين، شيء مركزيّ لنجاح التخطيط في التفاعل"[١]. ويلاحظ من خلال هذا القول: التركيز على مبدأ القصدية الذي ركَّز عليه التداوليون تحليلاتهم، وهم يسعون وراء إظهار علاقة التواصل بين المتكلم والمخاطب.

٢. استخدام القرآن الكريم أسلوب الحصر في قوله تعالى: ﴿**هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾، فالحصر هنا يؤكد نقطة مهمة جدًا غفل عنها المشركون، وهي أن الرسول الكريم ﷺ بشر مثلهم، لكنه كلف برسالة سماوية، أي "لستُ ربًا متصَرِّفًا أخلُقُ ما يُطْلَبُ منِّي، فكيف آتي بالله والملائكة؟ وكيف أخَلُقُ في الأرض ما لم يُخْلقْ فيها؟"[٢].

٣. الاستفهام المسبوق بالتعجب في كلمة (سبحان) استفهام إنكاري توبيخي أنكر على المشركين هذه الطلبات الخارقة التعجيزية التي طلبوها من الرسول ﷺ مقابل إيمانهم، "وفي مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر"[٣].

٤. استخدام المشركين بعض الألفاظ التي تدل على الموجودات الكونية التي أشارت إليها الآيات السابقة، فقد ذكرت الأرض والسماء والينبوع والجنة والنخيل والعنب والأنهار والملائكة والبيت والزخرف، وهذه الموجودات والمحسوسات الكونية أراد لها المشركون تقريب المعاني إلى المخاطب بأن هذه الطلبات ما هي إلا تعجيز للرسول ﷺ.

---

(١) استراتيجيات الخطاب، ١٩٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٥، ٢١١.

(٣) حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، محي الدين شيخ زاده، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م، ٦٢٤/٤.

٥. استخدام التوكيد بالمفعول المطلق؛ "لأن إدخال المفعول المطلق على هذه الأفعال يجعل للأفعال فيها مقتضيات فات أوان نفيها أو الاعتراض عليها، فقد جاء المفعول المطلق يفي المقتضى من هذه الأفعال إمكان أن يُنْفي أو يدحض أو يعترض"(١).

٦. انتقال كلامهم "من تَحَدِّيهِ بخوارِق فيها منافِعُ لهم إلى تَحدِّيهِ بخوارِقْ فيها مَضَرَّتُهم"(٢)، فتذكر الآية الكريمة: ﴿**أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً**﴾(٣)، أي أن تسقط علينا قطعة من القطع الموجودة من السماء "وتبدو طفولة الإدراك والتصور، كما يبدوا التعنت في هذه المقترحات الساذجة وهم يسوون بين البيت المزخرف والعروج إلى السماء!، أو بين تفجير الينبوع من الأرض ومجيء الله . سبحانه . والملائكة قبيلا!، والذي يجمع في تصورهم بين هذه المقترحات كلها هو أنها خوارق، فإذا جاءهم بها نظروا في الإيمان له والتصديق به"(٤).

التعليق والاستنتاج:

يظهر مما سبق ما يأتي:

١. بما أن هذه الطلبات كلها خوارق، والخوارق ليست من عمل الرسول ﷺ بل هي تقدير وصنع الله . سبحانه وتعالى . متى ما قدر لها يفعلها، وقد

---

(١) الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت . لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م، ٣١٢.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٠٩/١٥.

(٣) الإسراء: الآية (٩٢).

(٤) في ظلال القرآن ٢٢٥٠/٤.

تبين مدى عناد المشركين، وأنهم أرادوا بهذه الطلبات نفي الإعجاز عن رسول الله ﷺ بعد أن يعجز الرسول ﷺ عن تنفيذها؛ لأنهم كانوا يظنون أن المعجزات من صنع الرسول ﷺ ؛ لذلك طلبوا منه مباشرة أن ينفذ لهم هذه المطالب، ولم يقولوا ادع لنا ربك أن يفعل كذا، وكذا؛ لذا جاء الجواب: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾[1]؛ لتنزيه الله . سبحانه وتعالى . أولاً، ثم إزالة كل هذه المعتقدات والأوهام من عقولهم "ويثبت لهم بأنه ليس هو الله ولا هو شريكه، والمعجز من الله . سبحانه وتعالى . دون سواه، فأنا بشر مثلكم"[2].

٢. تدرجت تلك الأحداث على وفق أداء تصاعدي غير ممكن التحقق؛ إذ استهلت بتفجير العيون بعدها تكوّن الجنان بعدها يقع التحدي في طلبهم في سقوط كسف من السماء، ثم تحدي رابع ثم العودة إلى الحسّ المعهود ﴿**بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ**﴾ بعدها يقع التحدي الطلبي في (ارتقاء السماء)، وكل تلك الأحداث غير متحققة في نفوس المعاندين بفعل يقينهم التام من انعدام تحققها، وإن تحققت فلا يتحقق معه إيمانهم بفعل قوله تعالى: ﴿**وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ**﴾.

٣. تلك الأحداث تُعدّ الأصل المعيشي بالحس المدرك بالفناء على وفق ما عُرض من تسلسل منطقي؛ لإثبات القدرة الإلهية المقدسة.

(١) الإسراء: من الآية (٩٣).

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله، ٤١٢/٧.

تعقيب عام على هذا المبحث:

من خلال ما سبق، تبين:

١. "أن الأمر استراتيجية من استراتيجيات اللفظ التي يستعملها المتكلم قصد تهيئة المتلقي، أو لفت انتباهه، أو تنبيهه واستمالته، وقد ورد هذا الفعل كثيرًا في آيات التعجيز في القرآن الكريم، مما يدلل على مراعاة القرآن الكريم للمتكلمين والمخاطبين، وأحوال التخاطب؛ لأن الفعل الكلامي "ينظر إلى عملية التخاطب بمدى اكتشاف المتلقي للموقف المعبر عنه خلافهم قصد المتكلم"(١). فالمتلقي لا يصل إلى قصد المتكلم إلا بعملية ذهنية استدلالية، وبمعونة السياق وأحواله، وقرائنه.

٢. جاء الأمر التعجيزي المستحيل التنفيذ أمر تخلف فيه عنصر مهم من عناصر إتيان الأمر على حقيقته، وهو عنصر (إمكان الحصول)، مما أخرج الأمر إلى دلالة التعجيز وهي التي صنعت الحجة الرادعة، فالتعجيز دال على شدة العقوبة، ولقوة الحجاج بنية الأمر التعجيزي اكتفى به حجة وحيدة في الأمر ذاته في مقامات آخر، كان الخطاب فيه عامًا موجهًا إلى المتلقي الكوني.

٣. امتدت سلسلة الأفعال الكلامية الأمرية (مباشرة وغير مباشرة) في الآيات القرآنية السابقة، فكان مسار القوة الإنجازية يتضاعف مع كل فعل كلامي لاحق، وكانت القوة الآمرة تعلو بتتابع البنيات التركيبية، فالأمر الموجه مباشرة بأفعال الأمر أكثر شدة من الأمر الضمني واسم

(١) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م، ٣٤.

فعل الأمر (هاتو) دلالته أشد وأقوى من فعل الأمر الصريح، فتظهر الأفعال الكلامية بالتدرج من الأدنى قوة إلى الأشد قوة.

٤. هذه الأفعال تؤثر في المخاطب بشرط معرفته السياق التواصلي، فإن فات المخاطب معرفة هذا السياق فات الأثر، الذي تُحدثه هذه الأفعال في المتلقي؛ لذلك فإن أفعال الكلام لا يمكن استحضارها إلا باستحضار الشروط التداولية، ومقتضيات المقام والحال؛ لأنه لا يكفي أن يتلفظ بالفعل ليحصل بذلك ما يترتب عليه؛ بل قد يعرض أن يتلفظ بالفعل، ومن ثم لا يوجد له أثر في الخارج، ومن ثم يشترط في إنجاز التلفُّظ بالعبارة أن تكون مطابقة لمقتضى الحال[١].

(١) نظرية أفعال الكلام العامة، أوستين، ٢٧، وينظر: مدخل إلى علم النص . مشكلات في بناء النص، ٢١ وما بعدها، ومدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، ترجمة: د. فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.١٩٩٦م، ٦٥.

المبحث الثالث

الأثر التداولي لأفعال الكلام في أسلوب الاستفهام

توطئـة:

لقد اهتدى (سيرل) إلى أنواع أخرى من الأفعال الكلامية، ميزتها أن دلالاتها الفعلية لا تظهر صريحة في عبارة المتكلم، إنما تأويل هذه الدلالة وفهمها يحتاج إلى العودة لعوامل السياق المحيطة بالمتخاطبين، وهو الأمر الذي جعل المخاطب يؤول استفهام المخاطب على أنه طلب، أو لنقل استفهامًا طلبيًا.

والاستفهام مصدر الفعل (استفهم)، "واستفَهَمهُ": سأَلهُ أن يُفَهِّمَه، وقد استفهمني الشيء فأفْهَمته وفهَّمته تفهيمًا"(١)، فسؤال الفهم طلب السائل أن يخبره المسؤول عمَّا يسأل؛ ولذلك ساوى ابن فارس بين معنى الاستفهام والاستخبار، فقال: "الاستخبار: طلب خُبْر ما ليس عن المستخبر، وهو الاستفهام"(٢).

هذه الدلالة اللغوية انطلق منها بلاغيونا القدامى في تقسيم الاستفهام إلى حقيقي ومجازي أو بلاغي، والحقيقي: ما طلب به السائل أن يعلم ما ليس عنده علم به، والمجازي: ما انحرف من هذه الدلالة إلى دلالات أخر أو معانٍ أخرٍ حسب الموقف والسياق وقرائن الأحوال.

---

(١) لسان العرب، ٤٥٩/١٢ (ف هـ م).

(٢) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، وسنن العرب في كلامها، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م، ١٣٤/١.

ولأسلوب الاستفهام أثرٌ طيبٌ في آيات التعجيز في القرآن الكريم، كما أن له دورٌ كبيرٌ في العملية الحجاجية "نظرًا لما يعمله من جلب القارئ أو المستمع في عملية الاستدلال، بحيث إنه يشركه بحكم قوة الاستفهام وخصائصه، فهو أسلوب إنشائي. وهذه الأمور أيضًا هي من سمات الاستفهام البلاغي في القرآن الكريم، بحيث إنه يخدم مقاصد الخطاب، ويلعب دورًا أساسًا في الإقناع بالحجة"(١). فللاستفهام بنية إعجازية تقوم على طرح القضية المخصوصة، ثم تقديم ما يشرحها ويعلّلها.

وقد وُظِّف الاستفهام في آيات التعجيز حول قضية تتمحور حولها الآيات، وهي قضية (الأفعال الكلامية)، فهي تقتضي البيان وقرع الحجَّة على ذلك، الأمر الذي سأوضحه من خلال ما يلي من آيات خرج فيها الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى التعجيز نتوصل إليه من خلال المقام والموقف الذي قيل فيه الاستفهام والمستخدم في إنجاز الأفعال الكلامية بطريقة غير مباشرة، وبذلك يكون "تركيب الاستفهام من أهم التراكيب التي اعتمدها القرآن الكريم في المجادلة، لما لهذا الأسلوب من قدرة على حمل المجادل على التفكير والتأمل؛ ليدخل دائرة الاقتناع، ويسير على خطى الحقيقة، فيصل إلى القناعة الذاتية"(٢).

ولعل من أهم الآيات الاستفهامية التي أعطت دلالة التعجيز من خلال عدد من السياقات التي وردت فيها:

---

(١) البنية الحجاجية في القرآن الكريم، (سورة النمل نموذجًا)، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، ع(١٢)، ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) بني الجدل في الخطاب القرآني، خولة عبدالحميد، (رسالة دكتوراه)، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٦م، ١١٥.

١. قال تعالى: **﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**(١).

المعنى العام للآية:

"وابتدأوْا (الحواريون) خطابَهُم عيسى بندَائِهِ باسْمِهِ للدَّلالة على أَنَّ ما سيقولُونَهُ أمْرٌ فيه اقتراحُ وكُلْفَةٌ له، وكذلك شأن مَنْ يُخَاطِبُ من يَتَجشَّمُ منه كُلفة أنْ يُطَيِل خِطَابَهُ طلبًا لإقبال سَمْعِهِ إليه ليكون أوعى للمقصود"(٢).

الشرح والتحليل:

يرى ابن عاشور أن في هذا الاستفهام تأدبًا ولطفًا، إذ يقول: "وجرى قوله تعالى ... ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**﴾ على طريقة عربية في العَرض والدُّعاءِ يقولون للمستطيعِ لأمْرٍ: هلْ تَستطيعُ كذا، على معنى تَطَلُّب العُذْر له إنْ لم يُجِبْك إلى مطلُوبك، وأن السائِلَ لا يُحِبُّ أن يُكلِّف المسئول ما يَشُقُّ عليه، وذلك كنايةٌ فلم يبقَ منظورًا فيه إلى صريح المعنى المقتضِى أنه يُشكُّ في استطاعة المسئول، وإنما يقول ذلك الأدنَى للأعلى منه، وفي شيء يعلمُ أنه مستطاع للمسئول، فقرينةُ الكنايةَ تَحقُّقُ المسئول أن السائلَ يعلمُ استطاعَتهُ ...، فليس قولُ الحواريّين المحكِيُ بهذا اللَّفظِ في القرآن إلا لفظًا من لغتِهِم يدلُّ على التَلَطُّف والتأدُّب في السُؤال، كما هو مناسِبُ أهل الإيمان الخَالَص وليس شكًا في قدرة الله. تعالى. ولكنَّهُم سألُواْ آيةً لزيادةِ اطمئنَانِ قلوبِهِم بالإيمان، بأن ينتقِلواْ من الدليلِ العقليّ إلى الدليل المحسُوس، فإن النُّفُوسَ

(١) المائدة: الآية (١١٢).

(٢) التحرير والتنوير، ١٠٥/٧.

بالمحسُوسِ آنسُ"[١]، وهذا وجه من عدة وجوه في رفع الشك في اقتدار الله تعالى على ذلك "فإن مشاهدة مِثلِ هذه الآيةِ لاشكَّ أنها تُورِثُ الطُّمأنينةَ"[٢].

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

جاء في هذه الآية الفعل الإنجازي غير مباشر (الاستفهام بوصفه فعلاً يحمل أبعادًا تلميحية) على لسان بني إسرائيل، وهو يُلَمِّح إلى عدم تأّدبهم مع الله . عز وجل . ويُلَمّح كذلك إلى تشكيكهم بنبوة عيسى عليه السلام ورسالته، وهم بهذا الفعل اللغوي غير المباشر وهو ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**﴾، إذ ساووا بين الخالق والمخلوقين، فـ(هل يستطيع) فعل لغوي غير مباشر يستعمل بين متخاطبين من نفس المستوى، أي بين البشر، وليس بين الخالق والمخلوق، "فإنَّ شأْنَ المؤمنِ تَرْكُ الاقْتراحَ على ربِّهِ على هذه الصفة"[٣].

وتتمثل القوة الإنجازية المباشرة لهذه الآية القرآنية في الاستفهام في قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**﴾، والدليل الإنجازي هو أداة الاستفهام (هل)، وأما القوة الإنجازية غير المباشرة المتضمنة في القول هي التعجيز.

التعليق والاستنتـــاج:

بناءً على ما سبق من تحليل لأسلوب الاستفهام في هذه الآية يتبين أن: استنكاره . سبحانه . لعدم تأدبهم فيه تلميح إلى أنهم على معرفة بحقيقة الأمر، وأن قولهم: ﴿**هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ**﴾ قول لا يؤمنون به على وجه الحقيقة؛

(١) التحرير والتنوير، ١٠٥/٧.
(٢) مفاتيح الغيب، ٤٦٢/١٢.
(٣) فتح القدير، ١٠٦/٢.

لأن المقام مقام إنكار وليس مقام دعوة، وهذا تلميح بديع؛ لأنه يستلزم عصيانًا دعائمه الكبر والعناد وقوته الإنجازية هي التعجيز.

٢. قوله تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**(١).

المعنى العام للآية:

"أنَّ الله تعالى قال لمحمد ﷺ: قل لهؤلاء الكفار إن أتاكم عذاب الله في الدنيا وأتاكم العذابُ عند قيامِ الساعَةِ، أتَرْجِعونَ إلى غير الله في دفع ذلك البَلاءِ والضَّرِّ، أو تَرْجعون فيه إلى الله تعالى؟"(٢).

الشرح والتحليل:

جاءت الآية القرآنية متضمنة تعجيز أحداث يكون وقوعها حاصلاً في المستقبل لا محالة، فقد جاءت الآية مؤكدة للكفار إتيان العذاب لهم، إما في الحياة الدنيا وإما الآخرة، ومعلوم أن العذاب واقع بهم إما في الدنيا وإما في الآخرة، قال تعالى: **﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾**(٣).

فالآية الكريمة "احتجاج على المشركين، وإقامة حجة على بطلان شركهم من وجه، وهو أنها تفرض عذابًا آتيًا من جانب الله أو إتيان الساعة إليهم، ثم تفرض أنهم يدعون في ذلك من يكشف العذاب عنهم على ما هو

(١) الأنعام: الآية (٤٠).
(٢) مفاتيح الغيب، ٥٣٢/١٢.
(٣) الإسراء: الآية (٥٨).

المغروز في فطرة الإنسان أن يتوجه بالمسألة إذا بلغت به الشدة نحو من يقدر أن يكشف عنه"[١].

ومعنى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُكُم﴾: أخبروني، والضمير الثاني (الكاف) لا محل له من الإعراب[٢]، ويبدو أن في المعنى قلبًا للضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم الذي يكون محله النصب على المفعولية، "ومتعلق الاستخبار محذوف، تقديره: إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة مَنْ تدعون، ثم يبكّتهم بقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾، بمعنى: أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ، أم تدعون الله دونها"[٣].

الفعـــل الإنجازي المتضمن في القول:

الآية لها قوتين إنجازتين تواكبان نفس المحتوى القضوي حيث تنجز فعل السؤال المدلول عليه حرفيًا بقرينة بنيوية وهي أداة الاستفهام (الهمزة)، غير أن الجملة في المقام السياقي الذي وردت فيه لا يقصد بها إنجاز فعل السؤال، وإنما أنجز بها فعل (التعجيز) والذي يمثل لنا فعلاً كلاميًا غير مباشر؛ لأن الفعل المباشر هو فعل السؤال.

وقد بدأ التعجيز بـ(قل) التلقينية "وهي في كل تلك المواضع لم تكن إلا خطابًا للرسول محمد ﷺ وهو خطاب يدل على أن من وراء الرسول وحيًا

(١) تفسير الميزان، ٤١/٧.

(٢) الجوابات في التعبير القرآني، سعاد كريم خشيف، (رسالة دكتوراه)، جامعة بغداد، كلية التربية، ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م، ٢٨.

(٣) الكشاف، ٢٢/٢.

يوحي إليه بالإجابة عما سُئل عنه، والتبليغ بالأحكام والشرائع، ومن وراء الوحي رب العزة عظم شأنه"[١].

التعليق والاستنتاج:

لقد اشتملت هذه الآية على فعل الاستفهام الذي يعود إلى الجانب الوصفي المتمثل في وصف الكافرين **﴿أَرَأَيْتُكُم﴾** فعل تلفظي كلامي وصفي (تقريريات) تمثلت قوته الإنجازية في الاستفهام غير المباشر غرضه (التعجيز).

ويمكن توضيح بنية الفعل الكلامي كما يلي:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُكُم﴾

- المعنى الصريح . الاستفهام . فعل كلامي مباشر
- المعنى المستلزم . التعجيز. فعل كلامي غير مباشر

فلما خلص الاستفهام إلى الإفصاح بالمعنى التعجيزي، اختفى الطلب، بمعنى أن عنصر الإرادة يغيب عن الاستفهام الإفصاحي، بحيث لا يكون السائل منتظر الإجابة.

٣. قوله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾**[٢].

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) الإسراء: الآية (٨٥).

المعنى اللغوي:

"الرَّوح والرُّوح في الأصل واحد، وجعل الرّوح اسمًا للنفس؛ وذلك لكون النفس بعض الروح كتسمية النوع باسم الجنس، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[1].

المعنى العام للآية:

روى البخاري في سبب نزول هذه الآية عن ابن مسعود ﷺ، قال: "كُنتُ مع النبي ﷺ في حَرثٍ بالمدينة وهو يَتَوكَّأُ على عَسيب[2]؛ فمرَّ بنفرٍ من اليهود فقال بعضهم: سَلُوهُ عن الرُّوح؟، وقال بَعْضُهُم: لا تسأَلُوهُ لئلا يُسْمعْكُم ما تكرهُونَ، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا القاسم حَدِّثنا عن الرُّوح، فَقَام ساعةً ينظُرُ فَعَرفتُ أنه يُوحَى إليه، فتأَخَّرْتُ عنه حتى صَعِدَ الوحُي، ثم قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾ [3].

وقد اخْتُلِفَ في السائلين عن الروح في هذه الآية، فسبب النزول يُبين أن اليهود هم الذين سألوا عنها، وقال القرطبي فيروي عن ابن عباس . رضي الله عنهما . قوله: "إن السائلين عن الرُّوحِ هم قُريش، قالت لهم اليهودُ: سَلُوهُ عن أصحابِ الكهفِ وعَنْ ذي القَرْنَينِ وعن الرُّوحِ؛ فإن أخبرَكُم عن اثنين وأمسَكَ عن واحدةٍ فهو نَبِيٌّ، فأخبَرهُم خَبَر أصحابِ الكَهفِ وخبر ذي

(١) المفردات في غريب القرآن، ٣٦٩/١ (ر و ح).

(٢) **عسيب:** عصا من جريد النخيل.

(٣) صحيح البخاري، ٩٦/٩، ح(٧٢٩٧)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يُعنيه.

القرنين، وقال في الروح: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي من الأمرِ الَّذي لا يعلَمُهُ إلا الله"(١).

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، "أي إن عِلْمَكُم الذي عَلَّمَكُم الله، لَيسَ إلا المِقدارُ القليلُ بالنسْبَةِ إلى علْمِ الخالِقِ . سبحانه . ...، بل علمُ الأنبياء . عليهمُ السلامُ . ليسَ هو بالنسبة إلى عِلمِ الله . سبُحانه . إلا كما يأخُذُ الطائر في مِنْقَاره من البحر"(٢).

الشرح والتحليل:

افتتح الحوار بسؤال اليهود للنبي ﷺ (ما الروح؟)، فأجابهم الرسول ﷺ: بقوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾:

أ) **الافتراضات المسبقة**(٣): اليهود على علم مسبق بماهية الروح باطلاعهم على التوراة، وسألواْ؛ ليثيرواْ الشبهات وليبيّنواْ أنّهم أعلم من الرسول ﷺ، وبعض اليهود وكان يخاف نتيجة السؤال عن الروح من أن يأتي الجواب النبوي بمعلومات لا تزيد مكانة اليهود في المجتمع المدني إلا تدهورًا، وهم يدركون أن الروح من الأمور الغيبية التي لا يستطيع العقل المجرد

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م، ٣٢٥/١٠.

(٢) فتح القدير، ٣٠٢/٣.

(٣) عند كل عملية من عمليات التبليغ، ينطلق الأطراف (المتخاطبون) من معطيات أساسية معترف بها ومعروفة، وهذه الافتراضات المسبقة لا يصرح بها المتكلمون، وهي تشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية (التبليغية)، وهي محتواة في القول سواء تلفظ بهذا القول إثباتًا أو نفيًا. (مدخل إلى اللسانيات التداولية الجيلاني دلاش، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، (د.ت)، ٣٤.

أن يبحث فيها دون الرجوع إلى النص معنى الملفوظ ليس هو القصد الدال على المتكلم بالذات، بل هو المعنى الذي يستخرجه المخاطب إن الملفوظ منطلقًا في ذلك من بنيته الدالة ومعتمدًا على مجموع الكفايات التي يمتلكها المتكلم وحادسًا قصده الدلالي. والاقتضاء يظهر الحيرة التي كان عليها اليهود والخوف الذي انتابهم.

ويشكل قوله تعالى: ﴿**أُوتِيتُم**﴾، المقتضى الحجاجي، وهي كلمة لها حمولتها الدلالية حاجج بها متلقيه دون غيرها من الكلمات؛ لأن أصل العطاء من الله لا من غيره.

ب) **المعنى المستلزم:** وقوله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾: المعنى المستلزم من الآية المباركة إقرار منه ﷺ بجهل اليهود عن ماهية الروح الحقيقية؛ ولأنه دخل في باب التعريض[1] وقد يبلغ التعريض للضمير ما لا يبلغه التصريح، ويُعد التعريض من أساليب التداولية؛ لأن المرسل يمكن استعماله؛ لأنه أبلغ للفهم "والتعريض من الآليات الاستراتيجية التلميحية المستعملة عند العرب بكثرة في خطاباتهم، فقد اعتبر من علامات الكفاية التداولية عند الرسل ودليلاً على النبوغ الخطابي يستعمل لغايات معينة ومقاصد متنوعة ومراعاةً لما يتطلبه السياق، "حيث يرتبط القول المضمر بشكل أساس بوضعية الخطاب ومقامه"[2]؛ لأن المعنى الناتج من هذه التقنية لا يدل عليه ظاهر اللفظ، وإنما يستنبط من خلال سياق التخاطب.

---

(١) **التعريض:** "وهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي". (المثل السائر، ابن الأثير، نهضة مصر، ٣/٦٦).

(٢) التداولية عند العلماء العرب، مسعود صحراوي، ٣٢.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ ففي هذه الإجابة من . وجهة النظر التداولية. كسر لمبدأ الكم، فالإجابة **﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾**، قصيرة جدًا، لكن مع هذا القِصَر في الإجابة، يفهم اليهود أو المسلمون أن السؤال هو أكبر من فهمهم وإدراكهم؛ لذلك كانت الإجابة بمعنى صرف عن مثل هذه الأسئلة؛ وكذلك في الإجابة كسر لمبدأ المناسبة(١)، فلا يوجد مناسبة بين السؤال والجواب. فالسؤال هنا معناه المباشر يتمثل بلفظ **﴿يَسْأَلُونَكَ﴾**، أي استفهم واسأل وطلب الفهم عن شيء مجهول، وأما معناه غير المباشر فيتمثل في ضوء ما يحويه من سأل من دلالة مجازية على الاستبعاد، وهو سياق إنتاجي توكيدي ترشَّح من التتابع الكلامي.

وهنا يكمن البُعد الضمني للتعريض والتداولية إذ أنهما "معًا يعملان وفق خطوات تأويلية متقاربة تعتمد على إدراك العلاقات بين الملفوظ والمقصود"(٢).

إذن فالآية تدل على الإخبار بحسب الفعل الكلامي اللفظي المباشر **﴿يَسْأَلُونَكَ﴾**، وتدل على قوة إنجازية مستلزمة مقاميًا متضمنة في القول هي الاستبعاد.

---

(١) يتفرع عن مبدأ التعاون أربعة مبادئ فرعية، تندرج تحت كل واحدة منها قواعد أكثر تحديدًا، وما يترتب على هذه القواعد من نتائج يجب أن تكون منسجمًا مع مبدأ التعاون، ومن هذه المبادئ الفرعية مبدأ العلاقة أو المناسبة: يلزم هذا المبدأ المتكلم أن يكون كلامه مناسبًا. (آفاق جديدة في البحث اللغوي، ٣٤).

(٢) التداولية: البعد الثالث في سميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة، عيد بلبع، مجلة فصول، مصر، ٢٠٠٥م، ٣٥٧.

وتأسيسًا على ما تقدم يمكن أن نلمح القوة الإنجازية للفعل الكلامي كما يأتي:

المحتوى اللفظي ← سأل، الواو (فاعل)، الكاف (مفعول به) عن الروح

والمحتوى القَضَوِي ← سؤال اليهود عن الروح

القوة الإنجازية والتأثيرية ← الاستبعاد والتشكيك والتعجيز.

التعليق والاستنتاج:

ومما يحسن قوله أن الاستفهام لم يرد بإحدى أدوات الاستفهام، لكنه ورد بالجذر اللغوي (س أ ل)، قال ابن منظور: "سَأَل يَسْأَلُ سُؤَالاً وسَآلةً ومَسْألةً وتَسْآلاً وسَأَلَةً"(١)، وهو مَلْمَحُ فَطِنَ له الأصوليون؛ لأن الألفاظ لها مؤدَى واقعي، ويترتب عليها قوة إنجازية وتأثيرية في توجيه الحكم الشرعي، وقوله تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ**﴾، وإن كان فَعْلاً كلاميًا مباشرًا يُراد به الإخبار عمن لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا؛ لأن حالة النزول كان السائل هذا السؤال معلومًا معينًا فانصرف هذا اللفظ إليهم، إلا أن الغاية المرادة من السؤال هنا الاستبعاد والتعجيز.

(١) لسان العرب، ٣١٨/١١ (س أ ل).

٤. قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

المعنى العام للآية:

تكررت هذه الآية ست مرات في ست سور، فهي مكونة من ثلاث جمل تكررت في سور متفرقة[٢]، والملاحظ في تكرار هذه الآية أن جميع السور التي تكررت فيها سور مكيّة، وقد تفرقت هذه السور على أجزاء المصحف، وفي هذا إشارة إلى إكثار الكفار من هذا السؤال: ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾، أي: متى يأتي هذا الوعد الذي تعدنا به من العذاب الذي يحل بنا[٣]، وبيان سطوة الشك التي تسيطر عليهم؛ لقولهم: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، ولما في سؤالهم من تهكم وسخرية، وهو "سؤال متعنت مستبعد لقيام الساعة[٤]، "وذلك: أن كفار مكة قالواْ للنبي ﷺ: متى هذا العذاب الذي تعدنا، إن كنت صادقًا يقولون ذلك مستهزئين تكذيبًا بالعذاب"[٥]، كما ينبئ الفعل المضارع (يقولون) بالاستمرارية على ذلك السؤال، وهو واقع من قِبَلْ المعرضين إلى يومنا هذا.

---

(١) النمل: الآية (٧١).

(٢) يونس: الآية (٤٨)، الأنبياء: الآية (٣٨)، سبأ: الآية (٢٩)، يس: الآية (٤٨)، الملك: الآية (٢٥).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن طالب القيسي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، الإمارات، ط١، ٢٠٠٨م، ٨/٥٤٦١.

(٤) الكشاف، ٤/٦٦٠.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.٢٠٠٣م، ٣/٨٠.

الشرح والتحليل:

وردت (متى) مرة واحدة في سورة النمل لتفيد الاستبعاد، أي بيان سفه هؤلاء المشركين، حين استعجلوا عذاب الله وقالوا: ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾، وبيان عُتُّوهم وطغيانهم؛ لأن هذا الاستفهام كان على سبيل السخرية من هؤلاء المشركين وإنهم يقولون إن ما تعدوننا كذب بدليل أنه لم يقع، وهو دليلٍ أيضًا على عتوهم وطغيانهم حين تحدّوا الرسل . عليهم السلام . بهذه الكيفية، والظاهر أنه من باب التحدي والتعجيز، يدل عليهم قوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، ومثل هذه العبارة تكون تحدي(١).

ولقد وضح الشوكاني غرض الاستفهام بقوله: "والاستفهام منهم للإنكار والتوبيخ والاستبعاد وللقدح في النبوة"(٢)؛ لأن الله يخبرنا عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة ﴿**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**﴾(٣).

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

إن مجرد التكذيب كغرض للاستفهام في هذه الآية الكريمة ليس له كبير قيمة؛ لأن التكذيب . وإن فُهم من السياق . ليس مقصودًا في ذاته؛ إذ هم يعتقدون هذا القول، فوجب أن يقترن بالتكذيب معاني أخر هي: التعجيز والتحدي، فإن من يفتري هذه الفرية لا يردعه مجرَّد تكذيبه، والمرء حين

(١) تفسير القرآن (سورة النمل) محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن العثيمين الخيرية، القصيم، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٦هـ، ٤١١٥.

(٢) فتح القدير، ١٧٢/٤.

(٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين درويش، دار الإرشاد، حمص . سوريا، ط٤، ٢٠٩/٨.

يخطئ ثم يصرُّ على خطئه ويدافع عنه من دون علم، فهو أهل لهذا المعنى (التعجيز)؛ لأنه استمساك بخطأ جسيم دون استناد إلى علم أو دليل.

إذا كان هذا دليلاً منطقيًا، فإن في السياق ما يؤيد هذا المعنى كتأكيد قولهم هو قوله تعالى: **﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**. فإفادة الاستفهام معنى التعجيز إنما هو مستفاد من ربط هذه الآية بقوله: **﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** فهنا محط التعجيز.

وانطلاقًا من صيغة لغوية واحدة، نلاحظ ثلاث درجات في المعنى، أو ثلاث قوى إنجازية:

١. معنى الصيغة: السؤال (قوة إنجازية حرفية).

٢. معنى معنى : التوبيخ (قوة إنجازية مستلزمة).

٣. معنى معنى المعنى: الاستبعاد (قوة إنجازية مستلزمة).

التعليق والاستنتاج:

جاء الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار بقرينة المقام، ولعدم استقامة حمل الاستفهام على الاستفهام الحقيقي، ويتولد منه معنى الاستبعاد من حال الموبخ؛ وذلك لأن الحالة التي وبُّخواْ عليها حالة عجيبة، لما فيها من إرادة الخير للغير وإهمال النفس، فبعد أن تحدث الشوكاني عن خروج الاستفهام إلى التوبيخ أخرج التوبيخ وهو من قبيل المعنى المستلزم مقاميًا إلى الاستبعاد، فقد تم العدول من: الاستفهام إلى التوبيخ، ومن التوبيخ إلى الاستبعاد.

٥. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾[١].

المعنى اللغوي:

يتحاجون: التحاج: الاحتجاج من جانبين فأكثر أي إقامة الحجة "والحُجَّة: الدلالة المبيّنة للمحجّة، أي: المقصد المستقيم الذي يقتضي صحة أحد النقيضين"[٢].

المعنى العام للآية:

"والمعنى اذكُرْ يا محمدُ لقومِكَ إذْ يتَحاجُّونَ أي يُحاجِجُ بعضُهُم بعضًا، ثم شرَحَ خُصُومَتَهُم، وذلك أنَّ الضُّعَفاءَ يقولُون للرُّؤسَاءِ إنا كُنَّا لكم تَبَعًا في الدُّنيا، فهلْ أَنتُم مُغْنُون عنا نَصيبًا من النَّار، أي فهل تَقْدِرون على أن تدَفعُواْ أيُّها الرؤسَاءُ عنَّا نصيبًا من العذاب، واَعْلَمْ أنَّ أولئك الأتبَاع يعلمُون أن أولِئكَ الرُّؤسَاءَ لا قُدرَةَ لهم على ذلك التَّخفيف، وإنما مَقْصُودُهم من هذا الكلام المبالَغةُ في تَخْجِيلِ أولئك الرؤسَاءِ وإيلَامِ قلُوبِهِم"[٣].

الشرح والتحليل:

"إذْ" إشارة إلى زمان مبهم؛ فلذلك "احتاجَتْ إلى ما يُبَيِّنْ زمَانَها عن بقيةِ الأزمنةِ؛ فلذلك لزمت إضافَتهُا إلى الجُمَلِ أبدًا"[٤]، وهي في محل نصب على المفعولية، ولقد وردت "إذ" في القرآن الكريم، ودلت على القصص

(١) غافر: الآية (٤٧).
(٢) المفردات في غريب القرآن، ٢١٩/١ (ح ج ج).
(٣) مفاتيح الغيب، ٥٢٢/٢٧.
(٤) التحرير والتنوير، ٣٩٦/١.

العجيبة، وابتدئت بها، وهذه القصص كانت دالة على قدرة الله تعالى، وتقدر "إذ" بفعل "أذكر"، ونظيره كثير في القرآن الكريم، وهو حذف، والحذف مطية للتضمين في البُعد التداولي، وقد حذف هنا المسند إليه فقامت القرينة مكانه وهي "إذ"، والغاية من الحذف هنا هي الاحتراز عن قول ما ليس له فائدة، وهو للاختصار أيضًا وللإيجاز.

ويُعدّ ذكر المحذوف زيادة عن الحاجة، من نواقض قاعدة الكم في مبدأ التعاون عند (غرايس، Crice)، الذي ينص على "ألا تجعل مساهمتك إخبارية بالقدر الذي يفوق المطلوب"(١). فكان معنى الاستفهام واضحًا، وهو الإنكار مع التوبيخ، أي إنا فعلنا في الدنيا من ظلم وتكذيب ما كان ينبغي أن يكون.

ونلاحظ في الآية أن الاستفهام دخل على جملة اسمية، مع أن "هل" له مزيد اختصاص بالأفعال، فيجب أن يليه فعل، ولكن في الآية على خلاف ذلك، ولا يكون ذلك إلا لهدف ومعنى، يقول بعض البلاغيين: "إن الجملة الفعلية تفيد التجدد والحدوث، والجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام"(٢)، فالمراد منه، وضع ما سيتجدد في موضع الثبوت والدوام، لزيادة على حصول ذلك، ورغبتهم الشديدة في حصول الإغناء من عذاب النار، فكان: "هل أنتم" قبل دخول الاستفهام أقوى على طلب الدفع والاهتمام بوقوعه من أن تعتبر بالجملة الفعلية (تغنون عنا) بعد ما دخل عليها الاستفهام وهو يفيد الإنكار والنفي (ما أنتم مغنون عنا) فدّل على أشد الإنكار والندم، والتبكيت والتعجيز.

---

(١) التداولية، جورج يول، ٦٨.

(٢) علم المعاني، د. بسيوني فيود، مؤسسة المختار، ١٤٣٢هـ.٢٠١١م، ٣٩.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

عمل الاستفهام معنى الطلب وهو الأمر؛ لأنهم حينئذ يحتاجون إلى الإغناء من عذاب النار، فليس لهم سبيل إلا أن يطلبواْ الإغناء، وحمل هذا المعنى أسلوب الاستفهام فتعبير الطلب به ليدل على معنى التعجيز؛ لأنهم في وقت لا ينفع أي شيء؛ لذلك عبر الطلب بالاستفهام للتعجيز، وخرج الفعل الإنجازي المباشر إلى معنى إنجازي غير مباشر يفسره المقام الذي ورد فيه، وهو غرض التعجيز.

التعليق والاستنتـــاج:

بعد عرض هذه الآية تبين أنها قد احتوت على التركيب الذي يمثل شكلاً حواريًا بين القوم الكافرين، فالآية فيها نبرة تحدي للمستكبرين.

تعقيب عـــام على هذا المبحث:

في هذا المبحث تناولت الآيات القرآنية التطبيقية لنظرية الأفعال الكلامية، ومانتج عنها من أفعال كلامية جديدة منبثقة عن الأفعال الأصلية، ثم تبين الآتي:

١. مناقشة عدد من الأفعال الإنجازية غير المباشرة وبخاصة تلك التي تكون استفهامًا مقصودًا به الطلب، فلا يقصد القول فحسب، بل يتعدى القصد إلى ما هو أكثر منه وهو غرض التعجيز.

٢. الأفعال الإنجازية غير المباشرة لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة في المعنى الإنجازي الحرفي، وإنما الزيادة فيما يقصد من معنى ومدى استجابة السامع له، ومن هنا اتضحت علاقة الخروج عن الأصل بمفهوم المقام.

المبحث الرابع

الاسترسال التداولي لأفعال الكلام بين الأمر والاستفهام

توطئـة:

إن اللغـة العربيـة لغـة مبدعـة بمـا تمنحـه لمتكلميهـا مـن خيـارات أو استراتيجيات لغويـة وتركيبيـة وفقًا لأبعـاد كثيـرة، منهـا: المتكلم، والمخاطـب، والسياق، والمقام بظروفه وملابساته ... إلخ. يظهر من ذلك أن "المرسل يستطيع أن ينجز أكثر من فعل من الأفعال اللغوية في آن واحد، إذا اعتمد على الثنائيات التي تنتمي إلى صنف واحد، كما في إنجاز فعل الأمر وفعل النهي في آن واحد من خلال التلفظ بأحدهما"(١)، ولكن كل ذلك مرهون بسياق الموقف وظروفه المختلفة، وليس على إطلاقه "لكن ذلك لا يكون إلا عن طريق الاقتضاء"(٢)، ووجدت ما يشير إلى ذلك من آيات التعجيز في القرآن الكريم للآيات التالية:

١. قوله تعالى: **﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾**(٣).

---

(١) استراتيجيات الخطاب . مقاربة لغوية تداولية، ٣٨٩.

(٢) الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: دراسة نحوية تداولية، د. خالد ميلاد، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١، ١٤٢١هـ.٢٠٠١م، ١٣٩.

(٣) الإسراء: الآيات من (٤٩) إلى الآية (٥١).

المعنى اللغوي:

عظام: "العين والظاء والميم أصلُ واحد صحيح يُدلُّ على كِبَر وقُوَّةٍ، وعَظْمَةُ الذِّراع: مُستَغْلظُهَا"(١).

رفاتًا: "الراء والفاء والتاء أصل واحد صحيح يدل على فَتٍّ وَلَيٍّ"(٢)؛ فسينغضون: "الإنغاض: تحريكُ الرأس نحو الغير كالمتعجِّب منه"(٣).

المعنى العام للآيات:

"يقول تعالى مخبرًا عن قيل هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من مشركي قريش، وقالواْ بعنتهم: ﴿**أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا**﴾، لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا وبلانا (ورفاتا) يعني ترابًا في قبورنا"(٤)؛ "لهذا كانت جُملةُ قل كونوا حجارةً ... إلخ غير معطوفة، ... ، واعلم أن ارتباطَ ردِّ مقالَتِهم بقوله: كُونُوا حجارةً ... إلخ غامِضُ؛ لأنهم إنَّما استبعدواْ أو أحَالُواْ إرجَاعَ الحياةِ إلى أجسَامٍ تَفَرَّقَتْ أجزاؤُهَا"(٥).

الشرح والتحليل:

دلَّ التعبير القرآني بتأثير عن سياقه السابق على التعجيز مع الإهانة "في مقام عدم الاعتداد بالمخاطب وقلة المبالاة على أي وجه كان ... [ف] الأمر في الآية (كونواْ) لا يُراد به حقيقته، وإنما المراد منه (الإهانة)؛ لأن

(١) مقاييس اللغة، ٣٥٥/٤ (ع ظ م).
(٢) مقاييس اللغة، ٤٢٠/٢ (ر ف ت).
(٣) المفردات في غريب القرآن، ٨١٦/١ (ن غ ض).
(٤) جامع البيان، ٤٦٢/١٧.
(٥) التحرير والتنوير، ١٢٥/١٥.

الفعل ليس في طاقة المخاطبين، وطلب أن يكونوا حجارة أو حديدًا فيه إهانة لهم، وسر بلاغة التعبير إظهار التهكم بهم حتى يلتفتوا إلى ما هم فيه من المهانة والذلة فيقلعواْ عن عنادهم وتكبرهم"(١)، وقد عَدَّ الإمام الزركشي التعبير من باب التعجيز(٢).

وخروج الأمر عن دلالته الحقيقية إلى دلالة التحدي والتعجيز بعاملين اثنين، هما:

١. السياق السابق للنّص: المتمثل في سؤالهم الاستنكاري حول يوم البعث والمقترن بشيء يرونه مستحيلاً ألا وهو خلقهم من جديد، إذ قالوا: ﴿**أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا**﴾، فتحداهم الله. عز وجل. بما هو أكبر وهو خلق الحجارة أو الحديد، أو خلق مما يكبر في صدورهم "فإن قدرته تعالى لا تقتصر عن إحيائكم لاشتراك الأجسام في قبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظامًا مرفوته"(٣).

٢. المصاحبة اللغوية: يقول عرفات فيصل المناع: "إذًا لا توجد في اللغة العربية مصاحبة لغوية في الأمر بـ"كونوا" بين الحجارة أو الحديد أو الخلق الذي يكبر في صدورهم وهو الموت، فدلّ هذا على انحراف معنى الأمر إلى معنى آخر تدلّ عليه عناصر السياق الأخرى"(٤).

---

(١) أساليب المعاني في القرآن، السيد جعفر باقر الحسيني، ٢٠١٨م، ٥٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢/٢٥١.

(٣) فتح القدير ١/١٣٩.

(٤) السياق والمعنى: دراسة في أساليب النحو العربي، عرفات فيصل المناع، مؤسسة السّيّاب، لندن، ط١، ٢٠١٣، ٢٠٠.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

١. في الآيات السابقة هناك معان مضمرة غير المعاني الصريحة التي دَلّ عليها الحوار "المعنى الثاني الذي يتولد عن المعنى الأول، بحيث تكون الألفاظ مولدًا لدلالة غير مباشرة، يقصدها المتكلم ولا يعقلها المخاطب إلا عن طريق الاستدلال"(١)، فإذا ما أردنا أن نفهم قول الكافرين حول البعث بعد موتهم وبعد أن يصبحواْ ترابًا، يجب أن نفهم أولاً عن معنى الاستفهام في قوله تعالى: ﴿**أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا**﴾، هل هو استفهام حقيقي يراد به طلب الفهم؟ أم أنه استفهام إنكار يراد به إنكار هذا اليوم؟ "الهمزة للاستفهام الإنكاري مفيدة لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث"(٢)، ليأتي الجواب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على لسان نبيه محمد ﷺ ﴿**قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا**﴾؛ ليرد عليهم إنكارهم واستبعادهم ليوم البعث بعد موتهم وبعد أن يصبحواْ عظامًا ورفاتًا، وفي هذا الرد معنى "أَنَّ وَهَنَ الجِسْم مُسَاوٍ لصلابتهِ بالِّنْسبة إلى قدرة الله تعالى على تَكْيِيفِه كيف يَشاءُ"(٣).

٢. جاء هذا الرد خرقًا لقاعدة المناسبة، حيث لا مناسبة بين قول الكافرين والرد عليهم، فهم يتساءلون عن إمكانية بعثهم وإعادة خلقهم من جديد بعد أن يصبحوا عظامًا وترابًا، وإن كان هذا الاستفهام إنكاريًا، فما علاقة الجواب (قل كونوا حجارة أو حديدا) بالسؤال؟ إن الإجابة التي

(١) استاطيقا الإشارة: دراسة بلاغية سيميوطيقية، مصطفى السعدني، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، ١٩٩٤م، ٧٨، ٧٩.

(٢) روح المعاني، ٨٧/٨.

(٣) التحرير والتنوير ١٢٤/١٥.

كان ينتظرها الكافرون قد يكون (نعم إنكم مبعوثون)، أو (لا تبعثون)، فكانت الإجابة من الله . تعالى . على لسان نبيه ﷺ إجابة غير مباشرة، لكن هذه الإجابة مفهومة جيدًا من قبل الكافرين، وهذا هو مبدأ التعاون.

٣. من وجهة النظر التداولية: أن الأفعال الكلامية التوجيهية في هذه الآية، هي الاستفهام، الذي هو طلب الاستمرار والثبات على الإيمان، كما يوجد أيضًا جملة من الأفعال الكلامية غير المباشرة، منها: التوبيخ والتعجب والإنكار والتأنيب.

تعليق واستنتاج:

١. جيء بالفعل (كونوا) ليقابل الفعل (كنا) وتقابُل الألفاظ (عظامًا ورفاتًا) مع (حجارة أو حديدا) ويكون المعنى في ذلك: (إنكم مبعوثون سواء أكنتم عظامًا ورفاتًا أم كنتم حجارة أم حديدا تنبيهًا على أن قدرة الله تعالى لا يتعاصى عليها شيء"[(١)].

٢. والاستفهام في قوله تعالى: **﴿مَنْ يُعِيدُنَا﴾**، استفهام تهكمي[(٢)] يُراد به التشكيك من قدرة الله، ثم يأتي الحوار حول شكهم في هذه القدرة، فقال تعالى: **﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾**، وهذا يعني أن الله . سبحانه وتعالى . ألقي الحجة على الكافرين بأنهم كانوا من قبل ترابًا، ومن هذا التراب خلقهم، فالذي يخلق من التراب مرة يستطيع أن يخلقكم منه مرة ثانية وثالثة.

---

(١) التحرير والتنوير، ١٢٤/١٥، ١٢٥ (بتصرف يسير).

(٢) التحرير والتنوير، ١٢٨/١٥.

٣. انتقال الحوار إلى شك آخر الذي يظهره سؤالهم عن زمان هذا اليوم، فلسان حالهم يقول: ﴿**فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ**﴾، ففي سؤالهم هذا معنى التسليم بالشَّكَيْن السابقين، فقد سلموا بقدرته . سبحانه وتعالى . على إعادتهم من جديد بعد أن صاروا ترابًا ليتساءلوا عن زمن هذا اليوم الذي يبعث فيه الإنسان من جديد (متى) اسم استفهام يحال عن الزمان، ويمكن أن يكون هذا الاستفهام تهكمًا وتشكيكًا، فما كان الجواب إلا ردًا على تهكمهم وشكهم، فجاء قوله تعالى: ﴿**قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا**﴾، أي أن يوم البعث والحساب قد يكون قريبا "فإن ما هو محقق إتيانه قريب، ولم يُعين زمانه؛ لأنه من المغيبات التي لا يَطَّلِعُ عليها غيره . سبحانه وتعالى . ولا يُطْلِعُ عليها سبحانه أحدً"(١).

التعليق والاستنتـــاج:

وعليه .. يجب أن ننظر إلى الأسلوب في محيطه اللغوي الكامل، إن أردنا أن نعطي فهمًا دقيقًا لمعناه؛ "لأن الأساليب في العربية تأخذ بعدًا شكليًا وآخر سياقيًا، يتمثل الشكليّ في ما اتَّفق عليه النحاة والبلاغيون، من صيغ وأدوات تميّزها عن غيرها، أمَّا السياقيّ فيتمثَّل في تفاعلها مع عناصر لغوية أو غير لغوية، فينتج عن ذلك تغيير مدلولات تلك الأساليب، بل إننا قد نحصل على نقيض تلك الأساليب نتيجة لهذا التأثير والتأثر المتبادل فيما بينها"(٢).

(١) روح المعاني ٩٢/١٥.

(٢) السياق والمعنى، عرفات فيصل المناع، ٢٠٢.

٢. قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾(١).

المعنى العام للآية:

"أي: أعبادة ما تعبدون أيها المشركون من أوثانكم التي لا تضر ولا تنفع خير أم عبادة الذي جعل الأرض مستقر للإنسان والدواب، وجعل في أوسطها أنهارًا تنتفعون بها في شربكم ....، ﴿أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ في إيداع هذه الكائنات وإيجاد هذه الموجودات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله"(٢).

(١) النمل: الآيات من (٦٠) إلى (٦٥).

(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٦٥هـ ١٩٤٦م، ٨/٢٠، ٩.

الشرح والتحليل:

"انتقل قول الله . عز وجل . من التوبيخ تعريضًا إلى التبكيت تصريحًا"(١)، فالاستفهام الأول استفهام مثبت غرضه تقريري، **﴿أَمَّن﴾**: وتفيد الاستفهام في قوله **﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾**، أي أمن يجيب دعاء المكروب إذا دعاه، ومن يزيل ضر المضرورين، ويجعلكم أيها الناس متوازنين في الأرض ممن قبلكم مسكنًا وتعميرًا سوى الله، ولكنكم قليلاً ما تتعظون"(٢).

كما أفادت التقرير في قوله تعالى: **﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾** والمقصود من يهديكم إلى سبيل النجاة إذا تُهْتُم في البر أو ضللتم في ضلالات البحر وبين تلاطم أمواجه، أليس الله تعالى الذي جعل لكم الدلائل السماوية والأرضية وما يرشدكم بها إذا أشرفتم على الضياع والهلاك(٣).

وتفيد **﴿أَمَّن﴾**: الأخيرة الغرض التقريري في قوله تعالى: **﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾**، ففيها "كانواْ يقرون بأن الله . سبحانه وتعالى . هو الخالق فألزمهم الإعادة، أي: إذا قدر على الابتداء قدَر على الإعادة، ومن يرزقُكُم

(١) تفسير المراغي، ٧/٢٠.

(٢) من توجيهات القرآن العظيم،محمد عبدالكريم الجزائري، دار المتلقي للنشر، ٢٠٠٣م، ١٧٩.

(٣) التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون، مأمون أحمد راتب حموش، دمشق . سوريا، (د.ت)، ط١، ٢٠٠٧م، ٥٦٤/٩.

من السماء بالمطر والنبات، أي: هو خيرُ أم ما تجعلُونَهُ شريكًا له مما لا يقدر على شيءٍ من ذلك"(١).

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

يرى (سيرل) أن مثل هذه الجملة (الجملة الاستفهامية) تنجز فعلين كلاميين، أحدهما مباشر تستدل عليه من المعنى الحرفي للملفوظ، وآخر غير مباشر يفهم من سياق الكلام وتنقل من أولهما إلى ثانيهما عبر سلسلة من الاستدلالات(٢).

وأسلوب الاستفهام المصدر بـ(أمن) والتي تلته أفعال ماضية (خلق)، (جعل)، وأفعال مضارعة (يجيب)، (يهديكم)، (يبدأ)، وهذه الاستفهامات كلها مثبتة جاءت لتحمل المشركين على الإقرار والاعتراف والتدبر في الخلق، ملكها برهان على عظمة ووحدانية الله، وأفادت (أيان) تعظيم المستفهم منه في قوله تعالى: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾، "ثم بين بقوله: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، أن لا بُرْهان لكم فإذَنْ هم مُبْطِلُون"(٣).

يقول الآلوسي: "وقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ**﴾، أمر له ﷺ بتكبيتهم إثر تبكيت، أي هاتواْ برهانًا عقليًا أو نقليًا يدل على أن معه . عز وجل . إلهًا، وقيل: أي هاتواْ برهانًا على أن غيره تعالى يقدر على شيء مما ذكر من أفعاله . عز وجل . وتعقب بأن المشركين لا يدعون ذلك صريحًا ولا

(١) فتح القدير، ١٦٩/٤، ١٧٠.
(٢) اللسانيات الوظيفية . مدخل وظيفي، أحمد المتوكل، ٢٢.
(٣) مفاتيح الغيب، ٥٦٧/٢٤.

يلتزمون كونه من لوازم الألوهية وإن كان منها في الحقيقة فمطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له، وفي إضافة البرهان إلى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من إيهام أن لهم برهانًا وأنَّى لهم ذلك، وقيل: إن الإضافة لزيادة التبكيت كأنه قيل: نحن نقنع منكم بما تعدونه أنتم أيها الخصوم برهانًا يدل على ذلك، وإن لم نعده نحن ولا أحد من ذوي العقول كذلك، ومع هذا أنتم عاجزون عن الإتيان به ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، أي في تلك الدعوى، واستدل به على أن الدعوى لا تقبل ما لم تنور بالبرهان"[1].

التعليق والاستنتـــاج:

إذا كان النص القرآني قد وكل إلى المتلقي تأويل المعنى ما يتيح له دورًا في استنتاج الدلالة، فإنه أيضًا قد عمد إلى استخدام المفردات ذات المعاني العامة، ويرجع الآلوسي تفضيلها إلى التأثير المتلقي؛ إذ تحديد معنى خاص يحدد مجال التأثير بهذا المعنى، أما استخدام الكلمات التي تحمل معاني عامة يكون له أثر أعظم فلا تقف نفس السامع عند معنى معين، وهذا يتيح للمتلقي مجالاً أوسع وأرحب في استنتاج الدلالات المختلفة.

٣. قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا**﴾[2].

(١) روح المعاني، ٢١٩/١٠.

(٢) فاطر: الآية (٤٠).

المعنى العام للآية:

"تقريرًا للتوحيد وإبطالاً للإشْرَاك، وقولُهُ: (أرأيتم) المراد منه أخبرونِي؛ لأنَّ الاستفهامَ يستدعِي جوابًا ...، وقولُهُ: (أَرونِي) بَدلٌ من أرأيتم؛ لأنَّ كِلَيهِما يُفيدُ معنى أخبرُونِي، ويُحتمل أن يُقالَ قولُه: أرأيتم استفهام حقيقي وأروني أمرُ تعجيز للتّبيين، فلما قال: أرأيتُم يعني أعَلِمتُم هذه التي تدعُونها كما هي وعلى ما هي عليه من العَجْز، أو تَتَوهَّمُون فيها قُدْرةً، فإن كنتم تعلمُونَها عاجزةً فكيف تعبُدونَها؟"(١).

الشرح والتحليل:

"الأمر في قوله ﴿**أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ**﴾ مُسْتعملُ في التَّسخير والتعجيز، كناية عن النفي إن لم يخلقوا من الأرض شيئًا فلا تستطيعوا أن تَرونِي شيئًا خَلقوه في الأرض، وهذا من رُؤوس مسائل المناظرة، وهو مطالَبَةُ المُدَّعي بالَّدليل على إثبات دَعَواهُ"(٢)، يقول الشيخ ابن عاشور: "(أرأيتم) استفهام تقريري فهو كناية عن معنى (أخبروني)، و(ماذا) بمعنى ما الذي خلقوه والاستفهام في (ماذا خلقوا) إنكاري، والاستفهام المقدر بعد (أم) المنقطعة إنكاري، أي ليس لهم شرك مع الله في السموات"(٣)، فهو تعجيز المخاطب عن الإتيان بدليل على ما يعتقد حينئذ يكون لزامًا عليه تصديق الرسالة.

(١) مفاتيح الغيب، ٢٤٤/٢٦، ٢٤٥.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ١٩٤/٤.
(٣) التحرير والتنوير، ٩/٢٦.

٤. قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(١).

المعنى العام للآية:

"قل أرأيتم ما تدعُون من دون الله وهي الأصنامُ أَرُوني أي أخبروني ماذا خلقواْ مِنَ الأرض أم لهم شركٌ في السماوات، والمراد: أن هذه الأصنامَ، هل يُعْقَلُ أن يُضافَ إليها خَلْقُ جُزْءٍ من أجَزاءِ هذا العالم؟"(٢).

الشرح والتحليل:

يظهر في الآية الكريمة دور الاستفهام والأمر في تنبيه المتلقي على خطورة ما سيأتي من أمور عليه أن يترقبها، ومن ذلك الدور الذي يقوم به الخطاب في هذه الآية من أساليب الإقناع لما فيه من التنبيه على التناقض بين ما يدعيه المخاطب وسلوكه وتعجيزه عن الإتيان بدليل على ما يعتقد حينئذ يكون لزامًا عليه تصديق الرسالة، "وقوله: ﴿**ائْتُونِي بِكِتَابٍ**﴾ إلى آخره تبكيت لهم بتعجيزهم عن الإتيان بسند نقلي بعد تبكيتهم بالتعجيز عن الإتيان بسند عقلي فهو من جملة القول، أي: ائتوني بكتاب إلهي كائن ﴿**مِّن قَبْلِ هَذَا**﴾ الكتاب، أي القرآن، الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك دال على صحة دينكم ﴿**أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ**﴾ أي بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم العبادة"(٣).

---

(١) الأحقاف: الآية (٤).

(٢) مفاتيح الغيب، ٦/٢٨.

(٣) روح المعاني ١٦٣/١٣.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

"في هذه الآية قوة التسجيل على المشركين بالعجز، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم، وما هم عليه من عماية الضلالة"(١)، فأسلوب الأمر في الآية ﴿**أَرُونِي**﴾ تجاوز معناه الظاهر إلى فهم المشركين وإشعارهم بالدّون، وهو ما يؤكده الزمخشري حين يشير قائلاً: "والذين من دونه آلهتهم بكَّتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلقه الله وأنشأه فأروني ماذا خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم أضرب عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالتورّط في ضلال ليس بعده ضلال"(٢)، فقد أتي الكلام بصيغة الاستفهام ولكنه لا يحمل عليه؛ لأن المقام يمنع من ذلك، "فيكون الأمر التعجيزي في قوة نفي أن يخلقوا شيئًا ما"(٣).

التعـليق والاستنتاج:

لعل الأشياء المسئول عنها في هذه الآيات تُعد من البديهيات التي لا يجهلها عاقل، ولله المثل الأعلى، فالمقصود تعجيزهم عن الإجابة، فهم لم يخلقواْ شيئًا، فالعقل يقضي بعدم استوائهما، ولعل استخدام هذه الاستراتيجية في عرض الأدلة وترك المجال للعقل ليعمل فيها أفضل من ذكر المقصود بالأسلوب المباشر، فالتبكيت يبلغ غايته إذا جاء بصيغة الأمر، وواضح أن الفعل (أروني) اتخذ منحنى دلاليًا تداوليًا مفاده ضعف المشركين وتعجيزهم.

---

(١) من بلاغة النظم العربي: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة، عالم الكتب، ٢٠١٦م، ٧٨/٢، ٧٩.

(٢) الكشاف، ٤٩٢/٣.

(٣) التحرير والتنوير، ٣٢٥/٢.

٥. قوله تعالى: ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ**[١] **خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾[٢].

المعنى العام للآية:

قوله: ﴿**فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ**﴾، يقول: جل ثناؤه: فليأت قائلواْ ذلك له من المشركين بقرآن مثله، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ ، ولن يتعذر عليهم أن يأتوا من ذلك بمثل الذي أتي به محمد ﷺ إن كانوا صادقين في أن محمدًا ﷺ تقوّله وتخلَّقه[٣].

الشرح والتحليل:

﴿**فَلْيَأْتُوا**﴾، اللام هنا للأمر، والمقصود به التحدي والتعجيز، ﴿**بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**﴾، وهذا غاية التحدي، عجزواْ وما استطاعوا أن يأتواْ بحديث مثله مع أنهم أمراء البلاغة وسلاطين الفصاحة، لكنهم عجزواْ[٤]،

---

(١) **أمْ المنقطعة:** أم نوعان: متصلة ومنقطعة، فالمتصلة تربط ما قبلها بما بعدها، وتسمى (أم) المعادلة، أما المنقطعة فتكون دالة على الإضراب والاستفهام، وفي ذلك يقول سيبويه: "أما أم فلا يكون الكلام بها إلا استفهامًا، ويقع الكلام بها في الاستفهام على وجهين: على معنى أيهما وأيهم، وعلى أن يكون الاستفهام الآخر منقطعًا من الأول". (ينظر: الكتاب، ١٦٩/٣.

(٢) الطور: الآيات من (٣٤) إلى (٣٨).

(٣) جامع البيان، ٤٨١/٢٢.

(٤) لقاء الباب المفتوح، محمد بن صالح العثيمين، السعودية، ط١، ١٤٢١هـ.٢٠٠٠م، ١٦٢/٨.

يؤكد هذا المعنى ابن عاشور في قوله: "ولام الأمر في ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ مستعملة في أمر التعجيز"(١).

ولقد شكلت مجموعة الآيات من الآية (٣٠) إلى (٤٣) من سورة الطور تشكيلاً يبدأ بالأداة (أم) المنقطعة التي تعطي معنى الإضراب مع الاستفهام، وكل آية "إضراب انتقالي إلى إبطال ضرب آخر من شبهتهم في إنكارهم البعث"(٢)، والآية الكريمة تحمل في طياتها إضرابين مع استفهاميين: وذلك بأن المحاججة معهم تستنطقهم، هل خلقواْ من عدم، أم أنهم أوجداْ أنفسهم بأنفسهم "ووجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل، أما أن يكونواْ هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدَّعوه ولا يدّعيه مخلوق، وإذا كان هذان الفرضيان لا يقومان بحكم منطق الفطرة، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن الكريم، وهي أنهم جميعًا من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء، فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة"(٣).

ويلحظ أن التعبير التعجيزي جاء مصدرًا بـ(أم) المنقطعة الدالة على الاستفهام والإضراب، وجيء بالفعل (خلقواْ) مبنيًا للمجهول، ولعل فيه دلالة على عدم امتلاكهم لأمرهم، وجاء التعبير بقوله (شيء) النكرة، ليعطي دلالة عامة(٤)، إما للدلالة على الخالق المُقَدّر أو للدلالة على العلة والغاية أو الحيّ، فهم لا يؤمرون ولا ينهون كالجمادات، ثم جاء التعبير الثاني ﴿أَمْ هُمُ

(١) التحرير والتنوير، ٦٧/٢٧.
(٢) التحرير والتنوير، ٦٧/٢٧.
(٣) في ظلال القرآن، ٣٣٩٦/٦، ٣٤٠٠.
(٤) التحرير والتنوير، ٧٨/٢٧.

الْخَالِقُونَ﴾، والتعبير فيه يخاطبهم مخاطبة الغائب، ولعل في ذلك تهكمًا وتعجيزًا لهم.

الفعل الإنجازي المتضمن في القول:

يبدو أن فعل الأمر في **﴿فَلْيَأْتُوا﴾** قد حمل قوة إنجازية فعلية دل فيها التلميح الدلالي على عجزهم عن الإتيان بمثل الذي أتي به محمد ﷺ، فالفعل الإنجازي ينقل الكلام من حدوده الضيقة إلى آفاقه البعيدة، التي تتطلب طاقة ذهنية عالية من الكفاية التداولية، وقد حدد السياق طبيعة القوة الكلامية المتضمنة، فالمتكلم هو الله . عز وجل . والمخاطب هم المشركون، هذا السياق يجعل الحدث غير اللفظي للفعل (افعل) يفيد التعجيز وهي الدلالة المدركة على مستوى هذا الحدث.

وقد أتت نمطية التعجيز ضمن النسق الحواري العام في الكتاب العزيز موافقة لعادة العرب في تخاطبهم، ولخصوصية لسانهم، واستوفى المولى . عز وجل . في التراكيب اللغوية المستعملة لغرض الإقناع كل الأشكال اللسانية الممكنة التي نعرفها، والتي لا نزال نستكشفها، بقدر ما أتُيح لنا من فهم لكتاب الحق . سبحانه .، قول الإمام الزركشي في نص مؤسِّسٍ لقاعدة معرفية تداولية: "... فالمائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن ملغزًا، فأخرج تعالى مخاطباته في مُحاجة خلقه في أجَلِّ صورة، تشتمل على أدق دقيق؛

لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء"(١).

التعليق والاستنتاج:

أ) وقعت سخرية المشركين المستمرة من آيات القرآن الكريم إلى إعادة التذكير بحقيقتهم، فقال تعالى: ﴿**إِن كَانُوا صَادِقِينَ**﴾، استعملت هنا استعمالاً تعجيزيًا إبطاليًا أو تفنيديًا، غايته تقويض إدعاء الخصم (المشركون) وتبكيتهم.

ب) كان للرد ﴿**إِن كَانُوا صَادِقِينَ**﴾ طابعان: الإقناعي والتعجيزي، وهو طابع يومئ إلى سد باب الحوار وإغلاقه نهائيًا لاستشعارهم ضعف موقفهم وحججهم الواهية أمام قوة حجة النبي ﷺ.

تعقيب عـــام على هذا المبحث:

بهذا الذي ذُكر من آيات تحمل أسلوبي الأمر والاستفهام تبين الآتي:

١. أصبح من الخطأ اعتقاد التطابق بين نظام المعاني ونظام المباني، أو تقييد المباني مبنى مبنى بالدلالة على معنى معنى فإننا نفترض أن للأبنية في مستوى ما من التجريد معنى إنشائيًا بالوضع يتميز بخصائص تخاطبية مجردة ومرشحًا لأداء عمل لغوي ما يوافق معناه الإنشائي الوصفي أو يفارقه بقرينة أو علاقة من العلاقات التي تيسِّر الانتقال من الوضع إلى غير ما يدل عليه الوضع.

(١) البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، تحقيق: عبدالقادر عبدالله العاني، الكويت، ط١، ١٩٩٢م، ٣٤/٢.

٢. إذا كان الفعل اللغوي المباشر هو الذي يؤديه الأمر أو الاستفهام، فإن وراء هذا التركيب عملاً لغويًا غير مباشر يفرضه المقام وظروف الاستعمال، فسواء سمينا هذا المعنى المقامي عملاً قوليًا مباشرًا، أو عملاً لغويًا غير مباشر، أو عملاً تخاطبيًا على الحقيقة، أو معنى أولاً، أو معنى ثانيًا، فلابد من اعتبار خصائص البنية النحوية وخصائص العلاقة "القرينة"[١]، وبهذا يكون الاستعمال هو جامع علاقات التخاطب والأحوال المقامية.

(١) ينظر: إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية، د. شكري المبخوت، مركز النشر الجامعي، كلية الآداب . جامعة منوبة، ٢٠٠٦م، ١٥٧ (بتصرف).

الخاتمـــة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على صاحب الشفاعة سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ،،،

فبعد أن عشنا في رحاب تلك البساتين الندية، والنفحات الإلهية، مع كتاب ربنا . سبحانه وتعالى . من خلال تلك الآيات المباركات مقامًا ودراسة نظمية، عرضت في دراستي الجانب النظري لأفعال الكلام والتداولية من الإرهاصات الأولى التي دفعت بالبحث اللغوي إلى إيجاد مستوى ثالث بعد مستويي التركيب والدلالة، ومرورًا بمرحلة المفهوم والنشأة، ذاكرة اللبنات الأولى التي شكلت صرح هذا العلم في الفلسفة عند كل من (أوستين)، و(سيرل)، ثم ذكرت الجهود العربية الحديثة في إثراء هذه التداولية، فكان هذا الجانب النظري في هذا البحث، وتطبيقًا ودخولاً في خِضم الإشكالية المطروحة للدراسة، تعاملت مع النص القرآني وارتأيت أن تكون آيات التعجيز خطابًا تُطبق عليه تلك المرتكزات لهذه النظرية وللأفعال الكلامية التي كان لها قسطٌ وافرٌ من الأهمية، وتعرضت لأهم تلك الصيغ المتضمنة لأفعال الكلام (أسلوب الأمر والاستفهام)، ولم أغفل في دراستي دور السياق؛ حتى يتسنى للمتلقي والمخاطب التوصل إلى المقصود من كلام رب العالمين.

وما يمكن استخلاصه من هذا البحث من نتائج، هي:

أولاً : تُعدُّ الأفعال الكلامية غير المباشرة من الموضوعات المهمة التي أسست لظهور علم التداولية في العصر الحديث، وهي الأفعال التي

يكون لها إنجاز دلالي يقتضيه المقام أو السياق، فيخرج الملفوظ من معناه الحرفي إلى معنى آخر هو المقصود، يعتمد تفكير العقل والبرهان والحجة لرد الرأي برأي أقوى منه، والحجة بحجة أبلغ منها، وحُقَّ لآيات التعجيز هذه أن تكون عجيبة من عجائب القرآن الكريم، ودلالة من دلائل إعجازه!!

ثانيًا : أن التلميح بالأفعال الكلامية غير المباشرة تتعدد فيه النظرة العميقة للفعل في مقامه السياقي، ومن الطبيعي ألا يسجِّل القرآن الكريم كل مراحل الحوار تسجيلاً كاملاً كما سجلت أدوات التسجيل، فذلك مما لا تقبله بلاغة القرآن، ولا يحتمله إيجازُه وإعجازُه، وإنما يمسك القرآن من الموقف الحواري بالعناصر الحية منه، وبالمشاهد البارزة فيه، مما من شأنه أن يُجَلِّي الموقف ويحدد معالمه، ويكشف حقيقته، ثم يكون للناظر بعد ذلك أن يملأ الفراغات ويلونها بما يسعفه إدراكه، ويمده به خياله. وهذا الأفق لا يتحصَّل بهذا العمقِ لولا النظم القرآني البديع.

ثالثًا : قوة الفعل الكلامي .كما بيَّنه أوستين . هو كل فعل كلامي دلَّ على المعنى بأسلوب غير مباشر؛ وذلك بخروج اللفظ من معناه ودلالته الحقيقية إلى معنى آخر هو المقصود الدلالي من هذا القول، كخروج الأمر والاستفهام إلى معنى مقامي آخر هو (التعجيز) بوصفهما أفعالاً لغوية غير مباشرة، وطاقتهما الإنجازية المتمثلة في إحداث أثر في المخاطب، بتغيير سلوك، أو تهذيبه، أو العدول عن شيء آخر بالالتزام بالمطلوب.

رابعًا : لقد شكلت الأفعال الكلامية الإنشائية دورًا يهدف إلى التعجيز، وهذا ما يدل على أن الخطاب القرآني فيه من أساليب الحوار ومظاهر التواصل ما يعجز الدرس الحديث عن الإلمام بها، وكلها "تجسد الاستراتيجية الإقناعية والمنهجية المثلى في التحاور، حتى يتسنى للطرف الآخر استيعاب

الآليات وتفهم الخطاب، ومن ثم تبني الاعتقاد، وهي أساليب متصلة بمعاني أفعال الكلام غير المباشرة"(١).

خامسًا : مع اتفاق تلك الآيات في الغرض والهدف العام وهو التعجيز، إلا أننا وجدنا اختلافًا في المقامات، فتارة يكون المقام طلب تبديل القرآن، أو تغييره، وتارة يكون احتقارًا للمؤمنين وسخرية منهم، وتارة يكون تجهمًا وعبوسًا وشرًا يبدو على وجوه الكافرين، وتارة يكون بمحاولة الهروب بتعجيز المؤمنين بطلب الإتيان بآباء الكفار ... وهكذا، ثم وجدنا التلاؤم المعنوي بين المقامات والردّود والأجوبة، تناسبًا وتوافقًا يتلاءم مع عظمة القرآن الكريم.

سادسًا : يلاحظ أن ردود أفعال الكافرين في كل الآيات دارت حول: القرآن الكريم، والرسول ﷺ والمؤمنين، والبعث، فهذه القضايا الأربعة هي شغلهم الشاغل، وعليها دارت فكرة البحث، وراء ذلك إلماح إلى جوابهم المتوقع ورد فعلهم الخبيث وهو التعجيز.

سابعًا : ليس المقصود بالتعجيز إثبات العجز للخلق لذاته، من غير ترتب مطلب على هذا العجز، بل المقصود لازم هذا التعجيز وهو: إقامة الحجة على أن هذا الإدعاء حق، وأن رسول الله ﷺ الذي جاء به رسولُ صدقٍ، فينتقل الناس من الشعور وعجزهم إزاء تلك الآيات إلى شعورهم وإيمانهم بأنها صادرة من الإله القادر، لحكمة عالية، وهي: إرشادهم إلى تصديق من جاء به، ليسعد في الدنيا والآخرة.

(١) استراتيجات الخطاب، عبدالهادي بن ظافر الشهري، ٤٨١، ٤٨٢.

ثامنًا : لو نصت آيات الذكر الحكيم على وجوه التعجيز لكفر جاحدها أو الشاك فيها، وهذا من رحمة الله تعالى بنا، أن القرآن الكريم لم يتركنا في حيرة، بل وجهنا في الآية بعد الآية إلى تدبر مواطن التعجيز التي تقود إلى إدراك ما لا يتناهى فيرى كل متدبر حسب سلامة فطرته وقوة بصيرته، فقد يدرك الباحث وجهًا من وجوه التعجيز، بينما يدرك أهل عصر ما لا يدركه غيرهم في عصر آخر(١).

التوصيات البحثية:

١. توصي الباحثة إلى إعادة قراءة التراث من منظور حديث، لمعرفة موقع ومكانة منجزات التراث اللغوي العربي من الفكر اللغوي المعاصر.

٢. توظيف المستوى التداولي في تعليم اللغة العربية للناطقين بها، وغير الناطقين بها؛ لفهم الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم من خلال السياق، فالحاجة لا تزال ملحّة لمتابعة دراسة أساليب القرآن الكريم المختلفة، حتى يغدو نبراسًا في محاكاة تراثنا اللغوي، وهاديًا إلى تبسيط فنون القول المختلفة.

وبهذا أكون قد انتهيت من هذا البحث، وهو عمل إنشائي وصف بالنسيان والنقّصان، فالله أسأل أن تكون الهنات والعثرات أقل مما قد يُسيىء أو يُصَنِّف عملي بالأخطاء، فاللهم لك الحمد كما يليق بوجهك وعظيم سلطانك على ما كل ما أنعمت به علينا، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

(١) القرآن يتحدى، أحمد عز الدين عبدالله خلف، دار صادر، ط٢، ٢٠٠١م، ٢٤٣.

فهرس المصادر والمراجع

. القرآن الكريم .. جل من أنزله

١. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي (عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين، ت:٩١١هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٣٩٤هـ ١١٩٧٤م،٧/٤، ٨.

٢. الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٨هـ .١٩٩٨م.

٣. أحكام القرآن، الجصاص (علي بن علي أبي بكر الرازي، ت:٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٥هـ .

٤. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود (محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، ت:٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٦٤/١.

٥. أساليب المعاني في القرآن، السيد جعفر باقر الحسيني، ٢٠١٨م.

٦. أسباب نزول القرآن، الواحدي، تحقيق: عصام بن عبدالمحسن الحميدان، دار الإصلاح . الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ .١٩٩٢م.

٧. استاطيقا الإشارة: دراسة بلاغية سيميوطيقية، مصطفى السعدني، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، (د.ط)، ١٩٩٤م.

٨. استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، عبدالهادي بن ظاهر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٤م.

٩. الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، العياشي أدراوي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ١٤٣٢هـ .٢٠٠٠م.

١٠. الأسلوبية والأسلوب، عبدالسلام المسدي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط٣.

١١. إعجاز القرآن الكريم بالصّرفة: دراسة ناقدة، محمود توفيق محمد سعد، ١٤٢٤هـ.

١٢. إعجاز القرآن، محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، دار المعارف، مصر، ٢٠٠٩م.

١٣. الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود.

١٤. إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين درويش، دار الإرشاد، حمص . سوريا، ط٤.

١٥. أعلام النبوة، الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد البصري، ت:٤٥٠هـ)، دار ومكتبة الهلال . بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٦. آفاق جديدة للبحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٦م.

١٧. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيرازي، ١٤٢٦هـ .

١٨. الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة: دراسة نحوية تداولية، د. خالد ميلاد، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط١، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

١٩. إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية، د. شكري المبخوت، مركز النشر الجامعي، كلية الآداب . جامعة منوبة، ٢٠٠٦م.

٢٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبدالله الشيرازي، ت:٦٨٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ.

٢١. الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع، القزويني (محمد بن عبدالرحمن جلال الدين)، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.

٢٢. البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي (أبو عبدالله بدر الدين، ت:٧٩٤هـ)، تحقيق: عبدالقادر عبدالله العاني، الكويت، ط١، ١٩٩٢م.

٢٣. البحر المحيط في التفسير، أبو حيان (محمد بن يوسف بن علي أثير الدين الأندلسي، ت:٧٤٥هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٢٤. بحوث في الإعجاز والتفسير في رسائل النور، أحمد خالد شكري، مركز المعرفة.

٢٥. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ .١٩٥٧م.

٢٦. البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب . لبنان، ٢٠١٠م.

٢٧. البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م.

٢٨. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمّار، الأردن.

٢٩. البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيمائي لتحليل النص، هنريش بليث، ترجمة وتحقيق: محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، بيروت . لبنان، ١٩٩١م.

٣٠. بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م.

٣١. البيان والتبيين، الجاحظ (عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان، ت:٢٥٥هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الهلال . بيروت، (د.ط)، ١٤٢٣هـ.

٣٢. التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم (محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، ت:٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت . لبنان.

٣٣. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (محمد الطاهر بن محمد التونسي، ت:١٣٩٣هـ)، الدار التونسية، ١٩٨٤م.

٣٤. التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، كلاوس برينكر، تحقيق: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٥. التداولية: البعد الثالث في سميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة، عيد بلبع، مجلة فصول، مصر، ٢٠٠٥م.

٣٦. التداولية، جورج يول، ترجمة: قصي العتابي، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠١٠م.

٣٧. تداولية الخطاب السردي: دراسة تحليلية في وحي القلم للرافعي، محمود طلحة، جامعة الأغواط، عالم الكتب الحديث، أربد . الأردن، ٢٠١٢م.

٣٨. التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، د. مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٥م.

٣٩. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم (ت:٧٤١هـ)، دار أم القرى، مكة المكرمة، (د.ط).

٤٠. تفسير القرآن (سورة النمل) محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن العثيمين الخيرية، القصيم، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٦هـ.

٤١. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠ .١٩٩٩م.

٤٢. التفسير المأمون على منهج التنزيل والصحيح المسنون، مأمون أحمد راتب حموش، دمشق . سوريا، (د.ت)، ط١، ٢٠٠٧م.

٤٣. تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي، مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٦٥هـ .١٩٤٦م.

٤٤. تفسير مقاتل بن سليمان، (أبو الحسين مقاتل بن سليمان الأزدي، ت:١٥٠هـ)، تحقيق: عبدالله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ .٢٠٠٣م.

٤٥. تفسير من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الملاك، ط٢، ١٩٩٨م.

٤٦. التنفيذ العملي للتدريس، محمد زياد حمدان، عمان، دار التربية الحديثة، ١٩٨٥م.

٤٧. التواصل اللساني والشعرية، الطاهر بو مزبر، الدار العربية للعلوم، ط١، ٢٠٠٧م.

٤٨. جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، ت:٣١٠هـ)، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ .٢٠٠٠م.

٤٩. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر، ت:٦٧١هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ .١٩٦٤م.

٥٠. الجدول في إعراب القرآن، محمود بن عبدالرحيم صافي (ت:١٣٧٦هـ)، دار الرشيد، دمشق، بيروت، ط٤، ١٩٩٨م.

٥١. جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، (أبو هلال الحسن بن عبدالله، ت:٣٩٥هـ)، دار الفكر، بيروت.

٥٢. حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، محي الدين شيخ زاده، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٨م.

٥٣. الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، دار الفارابي، بيروت . لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.

٥٤. الحوار في القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الملاك للنشر، لبنان، ط٥، ١٤١٧هـ .١٩٩٦م.

٥٥. خصائص البنية الحوارية في محاورة موسى عليه السلام لفرعون وأسسها الحجاجية، د. بو شعيب بن مسعود راغين، جامعة طيبة، المدينة المنورة.

٥٦. خصائص التراكيب: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط٥، ١٤٢١هـ .٢٠٠٠م.

٥٧. الدلاليات والتداوليات، أشكال الحدود، منشور ضمن البحث اللساني والسيميائي، طه عبدالرحمن، الرباط، المغرب، ط١، ١٩٨٤م.

٥٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي (شهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني، ت:١٢٧٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط١١، ١٤١٥هـ.

٥٩. زاد المسير في علم التفسير، الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن، ت:٥٩٧هـ)، ابن القيم الجوزية، المكتب الإسلامي.

٦٠. السياق والمعنى: دراسة في أساليب النحو العربي، عرفات فيصل المناع، مؤسسة السّيّاب، لندن، ط١، ٢٠١٣.

٦١. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ابن عقيل (عبدالله بن عبدالرحمن العقيلي، ت:٧٦٩هـ)، دار التراث، ط٢٠، ١٤٠٠هـ .١٩٨٠م.

٦٢. شرح شافية ابن الحاجب (محمد بن الحسن الرضي الاستراباذي، نجم الدين، (ت:٦٨٦هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م، ٢٦٩/٢.

٦٣. شرح شذور الذهب، ابن هشام (عبدالله بن يوسف بن أحمد، ت:٧٦١هـ)، الشركة المتحدة، سوريا.

٦٤. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، وسنن العرب في كلامها، ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا، ت:٣٩٥هـ)، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٦٥. صحيح البخاري، البخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبدالله)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٦٦. صور الأمر في العربية بين التنظير والاستعمال، سعود بن غازي أبو تاكي، دار غريب، ط١، ٢٠٠٥م.

٦٧. علم اللغة الاجتماعي، محمد حسن عبدالعزيز، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

٦٨. علم المعاني، د. بسيوني فيود، مؤسسة المختار، ١٤٣٢هـ .٢٠١١م.

٦٩. علم المعاني (في البلاغة العربية)، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.

٧٠. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد، ت:٨٥٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ.

٧١. فتح القدير، الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبدالله، ت:١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٤هـ.

٧٢. الفعل الكلامي في سورة الأنفال: قراءة تداولية، حسين جعفر عبيد، جامعة بابل للعلوم الإنسانية.

٧٣. الفلسفة واللغة (نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة)، الزواوي بغوره، دار الطليعة، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠٠٥.

٧٤. في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ والإجراء)، نواري سعودي أبو زيد، بيت الحكمة العلمة، الجزائر، ط١.

٧٥. في ظلال القرآن، الشيخ سيد قطب، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.

٧٦. في فلسفة اللغة، محمود فهمي زيدان، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م.

٧٧. القرآن يتحدى، أحمد عز الدين عبدالله خلف، دار صادر، ط٢، ٢٠٠١م.

٧٨. قطوف دانية في علوم البلاغة، فلاح حسن محمد الجبّوري، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ١٩٧١م.

٧٩. قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم، سناء حميد البياتي، دار وائل، عمان . الأردن، ط١، ٢٠٠٣م.

٨٠. الكتاب، سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر، ت:١٨٠هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ .١٩٨٨م.

٨١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو، ت: ٥٣٨هـ)، ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٨٢. اللامات، الزجاجي (عبدالرحمن بن إسحاق البغدادي، ت:٣٣٧هـ)، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٤٠٥هـ .١٩٨٥م.

٨٣. اللام في القرآن الكريم . معانيها وعملها، أحمد إسماعيل الوحيدي، دار البيارق، عمان . الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ .١٩٩٩م.

٨٤. لسان العرب، ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، ت:٧١١هـ)، دار صادر. بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٨٥. لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩١م.

٨٦. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبدالرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت . لبنان، ط١، ١٩٩٨م.

٨٧. اللسانيات الوظيفية . مدخل نظري، أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٠م.

٨٨. لقاء الباب المفتوح، محمد بن صالح العثيمين (ت:١٤٢١هـ)، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ .٢٠٠٠م.

٨٩. مباحث في علوم القرآن، منّاع خليل القطّان، مؤسسة الرسالة، ط٢.

٩٠. المثل السائر، ابن الأثير (ضياء الدين بن الأثير، ت:٦٣٧هـ)، نهضة مصر.

٩١. محاسن التأويل، القاسمي (محمد جمال الدين بن محمد، ت:١٣٣٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

٩٢. محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، نعمان بوقرة، منشورات جامعة باجي مختار عنابة، ٢٠٠٦م.

٩٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (عبدالحق بن غالب الأندلسي)، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ .٢٠٠١م.

٩٤. مدخل إلى علم اللغة النصي، فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر، ترجمة: د. فالح بن شبيب العجمي، جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ .١٩٩٦م.

٩٥. مدخل إلى علم النص . مشكلات بناء النص . زتسيسلاف واورزنياك، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، مصر، ط١، ٢٠٠٣م.

٩٦. مدخل إلى اللسانيات التداولية الجيلاني دلاش، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).

٩٧. معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ .١٩٨٨م.

٩٨. المعجم الأوسط، الطبراني (سليمان بن أحمد بن أيوب، ت:٣٦٠هـ)، دار الحرمين، القاهرة.

٩٩. المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٧م.

١٠٠. مفاتيح الغيب، الرازي (أبو عبدالله محمد بن عمر، ت:٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.

١٠١. المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد، ت:٥٠٢هـ)، دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ.

١٠٢. مقاييس اللغة، لابن فارس، دار الفكر، ١٣٩٩هـ .١٩٧٩م.

١٠٣. المقتضب، المبرد (محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، ت:٢٨٥هـ)، عالم الكتب، بيروت.

١٠٤. مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤م.

١٠٥. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبدالعظيم الزقاني، عيسى البابي الحلبي، ١٣٦٢هـ .١٩٤٣م.

١٠٦. من بلاغة النظم العربي: دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة، عالم الكتب، ٢٠١٦م.

١٠٧. من توجيهات القرآن العظيم، محمد عبدالكريم الجزائري، دار المتلقي للنشر، ٢٠٠٣م.

١٠٨. من نحو المباني إلى نحو المعاني (بحث في الجملة وأركانها)، محمد طاهر الحمصي، الناشر: دار سعد الدين، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م.

١٠٩. الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤١٧هـ.

١١٠. نحو النص، اتجاه جديد في الدرس النحوي، أحمد عفيفي، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١م.

١١١. نحو النص (إطار نظري ودراسة تطبيقية)، عثمان أبو زيد، عالم الكتب الحديث، ٢٠١٠م.

١١٢. نزول آيات القرآن الكريم وسوره، أحمد خالد عمران سميح، تقديم ومراجعة: أحمد محمد مفلح، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان، ط١، ٢٠٠٢م.

١١٣. النص والخطاب والاتصال، د. محمد العبد، ط٢، ٢٠١٤هـ.

١١٤. نظرية أفعال الكلام العامة .كيف ننجز الأشياء بالكلام، أوستين، ترجمة: عبدالقادر قنيني، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، ١٩٩١م.

١١٥. نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب، طالب سيد هاشم الطبطائي، جامعة الكويت، ١٩٩٤م.

١١٦. الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن طالب القيسي (أبو محمد مكي بن أبي طالب، ت:٤٣٧هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة، الإمارات، ط١، ٢٠٠٨م.

الرسائل الجامعية:

١. أفعال الكلام في سورة مريم: دراسة تداولية، صباح حدادي، وسوسن بوغداس، (رسالة ماجستير)، ٢٠١٦.٢٠١٧م.

٢. الأفعال الكلامية في سورة الكهف: دراسة تداولية، آمنة لعور، (رسالة ماجستير)، ٢٠١٠.٢٠١١م.

٣. الأفعال الكلامية في القرآن الكريم (سورة البقرة: دراسة تداولية)، محمد مدور، (رسالة دكتوراه)، جامعة الحاج الخضر، باتنة، ٢٠١٣م.

٤. بني الجدل في الخطاب القرآني، خولة عبدالحميد، (رسالة دكتوراه)، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٦م.

٥. تجليات مفاهيم التداولية في التراث العربي، تفسير الرازي لسورة المؤمنون أنموذجًا، (رسالة ماجستير)، موسى جمال، الجزائر، ٢٠٠٩م.

٦. الجوابات في التعبير القرآني، سعاد كريم خشيف، (رسالة دكتوراه)، جامعة بغداد، كلية التربية، ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م.

٧. السور المسبحات: دراسة تداولية، محمد شمخي جبر، (رسالة ماجستير)، ٢٠١٥. ٢٠١٦م.

٨. لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل: دراسة أسلوبية دلالية، (رسالة ماجستير)، لافي محمد محمود زقوت، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين.

الدوريـــات:

٩ . البنية الحجاجية في القرآن الكريم، (سورة النمل نموذجًا)، الحواس مسعودي، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، ع(١٢).

١٠. تعديل القوة الإنجازية، محمد العبد، مجلة فضول، ع٦٥، ٢٠٠٦م، ١٣٧.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــوع
المقدمة
التمهيد: حدود المعاني للتداولية والأفعال الكلامية في آيات التعجيز
المبحث الأول: الأثر التداولي لأفعال الكلام في أسلوب الأمر.
المبحث الثاني: الأثر التداولي لأفعال الكلام بصيغ مخصوصة للأمر.
المبحث الثالث: الأثر التداولي لأفعال الكلام في أسلوب الاستفهام. ....
المبحث الرابع: الاسترسال التداولي لأفعال الكلام بين الأمر والاستفهام.
الخاتمة.
فهرس المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات